



**قراءة ثانية للامية اليهود  
للسموأل  
في ضوء نظرية النظم**

إعداد

**أ.د/ علي عبد الحميد أحمد عيسى**

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

**لجنة التحكيم**

عضو اللجنة العلمية الدائمة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

**أ.د/ فريد محمد بدوى النكلاوى**

**أ.د/ أحمد عبد الجواد عكاشة**



## قراءة ثانية<sup>(١)</sup> للامية اليهود<sup>(٢)</sup> للسموأل<sup>(٣)</sup>

### في ضوء نظرية النظم

توطئة : دلالة النظم على نسبة القصيدة<sup>(٤)</sup> :

هناك من المؤرخين المحدثين<sup>(٥)</sup> من ينكر شخصية السموأل جملة وتفصيلاً ويدخلها في دائرة حديث الخرافة والوهم... وهو بعيد عن الواقع التاريخي والتأج الأدبي له ...

(١) هناك قراءات أولى لهذه اللامية سواء للباحث أو لغيره، فقد قرأها لطلاب السنة الثالثة في البحث البلاغي قراءة ثانية، وكانت دراسة أولى، كما قرأها غيره قراءة أدبية كما فعل د/ محمود الريدادي في مجلة التراث العربي دمشق، وكما فعل المرزوقي في تحليلها تحليلاً لغوياً عاماً... ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٠/١ وما بعدها .

(٢) الإضافة هنا للاحتراز — بدءاً — عن غيرها من اللاميات ؛ فهي متنوعة بحسب الأمم التي تضاف إليها، فهناك لامية العرب للشنفرى، ولامية العجم للطغرائي، ولامية المالِك لابن خلدون، ولامية الهند لعبد المقتدر الكندي الدهلوي، واللامية الأموية لشاعر المهجر أبي الفضل الوليد (إلياس طعمة) قبل إسلامه، بالإضافة إلى اللامية موضع الدراسة فهي تنسب إلى السموأل اليهودي .

وهذه اللاميات هي مجموعة متميزة من القصائد ينظمها قاسم مشترك إنما على قافية اللام، كما أنها تشترك في المعاني المفرغة فيها والأفكار والعواطف، فهي كلها تدور حول تمجيد الذات والقبيلة والعشيرة بما فيها من إيجابيات قيم التمجيد والتغني بالمآثر، بجانب احتفالها بالحكمة... ثم تشترك في الطول الذي يساعد في إفراغ هذه المعاني مجتمعة... ومن ثم تقبلها الفرد والجماعة...

قراءة في لاميات الأمم د/ محمود الريدادي مجلة التراث العربي دمشق العدد ٨٣، ٨٤ موقع اتحاد الكتاب العرب الإلكتروني .

(٣) هو السموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعه بن الحارث الأزدي شاعر جاهلي من سكان خيبر، أشهر شعره لاميته وهي من أجود شعره . انظر : ترجمته في الأغاني لأبي الفرج ١٢٢/٢٢ تح سمر جابر — دار الفكر العربي — بيروت — ط ثانية، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ٢٧٩/١ .

(٤) تمييز المنحول عن طريق النظم والتركيب بحاجة إلى دراسات متتابعة تبدأ بفقهاء الجاهليين جملة وتفصيلاً ..

(٥) د/ فضل بن عمار العمري في بحثه : السموأل الحقيقة والتاريخ — مجلة جامعة الملك سعود ص ٣١٢، ٣١٣، العدد ١٤٢٢ — ٢٠٠٢م، وهو قائم في أكثره على تتبع الوقائع التاريخية من غير أن يدخل إلى بيان السموأل وما يشي به .. لذا لم نتوقف عنده كثيراً ...

وهناك من ينكر نسبة القصيدة إلى السموأل على سبيل القطع واليقين، بل يجعل النسبة احتمالية عن طريق ترديد النسبة بينه وبين عبد الرحيم بن عبد الملك الحارثي شاعر عباسي ... كما فعل المرزوقي<sup>(١)</sup> وغيره ... أو هي موضوع أكثرها عليه وإن كان له بعض أبياتها ...<sup>(٢)</sup>

ولكن الناظر فيها يتبين له اتساق المعاني الشائعة فيها والتي قامت عليها، ثم ما فيها من سمات نظم نجد نسبتها إلى السموأل أقرب وبه ألقى.. وذلك لما يلي:

أولاً : قامت القصيدة على رد ما يتوهم من الازدراء واليب بقلّة العدد، فكانت تلك القلة هي الهاجس الذي غلب على الشاعر ... وهذا أكثر تلاؤماً مع حال اليهود في الجزيرة العربية، حيث كانوا محصورين فيها بين قبائل عربية من اتجاهات عدة ...

ثانياً : القول بأن القصيدة مصنوعة وموضوعة عليه لا يتلاقى مع الشعر الموضوع المصنوع وما فيه من دلائل الصنع في أسلوبه ونسجه وهلهلة بنائه وتراكيبه... وتنافر معانيه .. وهذا لا تجده في القصيدة التي معنا ..

ثالثاً : التباين بين القصيدة في مدخلها ومزجها .. وهيكلها وبنائها مع غير النهج التقليدي لبناء القصيدة العربية، يجعلها أقرب إلى شعر اليهود ...

رابعاً : تركيز الشاعر فيها على صفاء السلالة ... ونقاء النسب يتناسب مع دعاوى اليهود ذلك ... وهذا بين ..

خامساً : ألا يتمثل في بناء هذه القصيدة وتركيبها عمود الشعر العربي على وجه أكمل من غيره ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب — ولا أراك تنفي ذلك — فاعلم أنه ألقى بالشعر الجاهلي

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة ١/ ١١٠، والأغاني ٢٢/ ١٣٠، ومعاهد التنصيص للعباسي ١/ ١٢٩ وما بعدها.

(٢) وهو ما انتهى إليه د/ محمود الريدائي في بحثه (قراءة في لاميات العرب) في قوله : ( ولكي ننصف السموأل يمكن أن نقول إن له بعض الأبيات على القافية اللامية المضمومة والبحر الطويل اختلطت في أذهان الرواة بلامية الحارثي، ثم جاء بعد ذلك أناس فنسبوا القصيدة كلها للسموأل )، وهذا كلام بين الفساد لأنه لا اختلاف في نسجها وبنائها في فقرها وأركانها ... ولا تضاد في معانيها .. ثم إن قوله (ثم) يدل على أن هذا الاختلاط في أذهان الرواة استمر مدة طويلة، ولو كان كذلك أشار إليه النقاد، ولعنوا به عنايتهم بالانتحال ... وهذا لم يحدث فدل على بطلان ذلك وترجيح نسبتها إلى السموأل ...

وأقرب وأكثر لحمة به ... ونسبتها إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي وقد عاش في القرن الثالث يباعده عنها .. وأنت تعلم الآثار التي ترتبت على تداخل الحضارات والثقافات في العصر العباسي الثاني على معانيه وتراكيبه ... بل على ألفاظه.. ومن ثم تجد ابن طباطبا العلوي<sup>(١)</sup> يصف أباها بما يوصف به الشعر الجاهلي فهي عنده متقنة مستوفاة المعاني، حسنة الوصف، سلسلة الألفاظ لا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها .

وقد يقال : كيف تقول في رواية البيت :

وما مات منا سيد حتف أنفه .: ولا ظل منا حيث مات قتيل

وقد ذكر العلماء أن أول من قال (مات حتف أنفه) هو الرسول ﷺ، ألا يدل هذا التركيب على أنها إسلامية ؟ أقول لك : إن الرواية التي ذكر التبريزي - وهو من هو - : (وما مات منا سيد في فراشه ... البيت) تؤيد ما ذكرنا ومن ثم يسقط الاعتراض أصلاً ... كما ستري في موضعه من القصيدة .<sup>(٢)</sup>

(١) انظر : عيار الشعر ص ٦٣ تح / عباس عبد الساتر - دار الكتب العلمية - بيروت - ط أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٢) انظر : تحليل البيت في موضعه من البحث ص

**نص القصيدة<sup>(١)</sup>**

١. إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه .: فكل رداء يرتديه جميل
٢. إذا المرء لم يحمل على النفس ضيمها .: فليس إلى حسن الثناء سبيل
٣. تعبرنا أنا قليل عد يدنا .: فقلت لها إن الكرام قليل
٤. وما قل من كانت بقاياها مثلاً .: شباب تسمى للعلا وكهول
٥. وما ضرنا أنا قليل وجارنا .: عزيز وجار الأكثرين ذليل
٦. لنا جبل يحتله من نجيره .: منيع يرد الطرف وهو كليل
٧. رسا أصله تحت الثرى وسما به .: إلى النجم فرع لا ينال طويل
٨. هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره .: يعز على من رامه ويطول
٩. وإنا لقوم ما نرى القتل سبة .: إذا ما رأته عامر وسلول
١٠. يقرب حب الموت آجالنا لنا .: وتكرهه آجالهم فتطول
١١. وما مات منا سيد حتف أنفه .: ولا ظل منا حيث كان قتيل
١٢. تسيل على حد الطبقات نفوسنا .: وليست على غير السيوف تسيل
١٣. صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا .: إناث أطابت حملنا وفحول
١٤. علونا إلى خير الظهور وحطنا .: لوقت إلى خير البطون نزول
١٥. فتحن كماء المزن ما في نصابنا .: كهام ولا فينا يعد بخيل
١٦. وننكر إن شئنا على الناس قولهم .: ولا ينكرون القول حين نقول
١٧. إذا سيد منا خلا قام سيد .: قؤول لما قال الكرام فعول
١٨. وما أخذت نار لنا دون طارق .: ولا ذمنا في النازلين نزيل
١٩. وأيامنا مشهورة في عدونا .: لها غرر معلومة وحجول

(١) هذه رواية الديوان ١٣ ولم يذكر المرزوقي البيت الثامن، ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي / ١١٠ -

٢٠. وأسيافنا في كل غرب ومشرق .: بها من قراع الدارين فلول  
 ٢١. معودة ألا تسل نصالها .: فتغمد حتى يستباح قيل  
 ٢٢. سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم .: فليس سواء عالم وجهول  
 ٢٣. فإن بنى الديان قطب لقومهم .: تدور رحاهم حولهم وتجول

### مطلع القصيدة وتلاؤمه مع المعاني والتراكيب المبثوثة في القصيدة :

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه .: فكل رداء يرتديه جيل  
 إذا المرء لم يحمل على النفس ضيمها .: فليس إلى حسن الثناء سبيل  
 يبدأ الشاعر قصيدته بقضية عامة، ويسلكها في صيغة الشرط والجزاء حتى تكون القضية عامة وصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ..

ثم شيء آخر، وهو أن استهلال كلامه بهذه الحكمة العامة التي لا تنكر فيه دليل صدق قوله الآتي بعد ذلك في بيان صفات قومه وحلو شمائلهم وكرم فضائلهم .. فهو مصدق من أول الأمر<sup>(١)</sup> ..

كما أن صياغة الجملة على الشرط والجزاء يجعلها لا تتخلف عند تحقق الأول ؛ لأن الارتباط بين الشرط والجزاء ارتباط أولى، ومن ثم إذا تتبعته في نظم الكلم العالي وجدته يأتى في الأمور المركوزة في الطباع، والمقررة في العقول ... وهذا بين في هذا المطلع ... ؛ إذ إن ذلك لا يشك فيه أحد ؛ إذ هي نتاج تجارب إنسانية عامة ...

وإثارة " إذا " في الشرط في البيت الأول، لأن ذلك أمر محقق مقرر، لا يشك فيه ؛ ولذا فرق البلاغيون<sup>(٢)</sup> بين التقييد بـ " إذا " والتقييد بـ " إن " بأنها — إذا — تأتي في الأمر الثابت المحقق، المقطوع بوقوعه في المستقبل بحسب اعتقاده ...، بخلاف : " إن " فهي تأتي في الأمر المشكوك فيه، المتوهم وقوعه، أو المظنون به، والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط ولا

(١) ينظر : معلقة زهير في ضوء نظرية النظم د/ عبده زايد ص ١١٠ .

(٢) ينظر : المفتاح / ٢٤، والإيضاح / ٥٣، واليعقوبي (شروح) ٣٩/٢ .

وقوعه، بل يجوز كل منهما لكونه غير محقق الوقوع ..<sup>(١)</sup>

ولكن يتأتى على رواية التبريزى للبيت الثانى :

وإن هو لم يحمل على النفس ... ∴ ..... البيت

بـ " إن " دون " إذا " كما هو فى البيت الأول = إشكال ؛ ذلك لأن الأمر مقرر معلوم — أيضاً — فهى حكمة كسابقتها، ووجهها — عندى — على وضع<sup>(٢)</sup> " إن " موضع " إذا " لنكتة تتصل بالغرض المراد هنا ؛ ذلك لأن حمل النفس على ما تكرهه حتى تبلغ مرادها لا يصل إليه إلا القليل من الرجال، فهو عزيز وغال، وإن كان مقطوعاً به عند تحقق الشرط ... ويكون فى القيد السابق دلالة على الثانى وفى المقام دلالة على الأول ...

وإثارة " المرء " فى الشرط دون غيره من الناس أو البشر .. الخ لأن " المرء " يفيد أدب النفس، ولهذا يقال : المروءة أدب مخصوص<sup>(٣)</sup>، وهذا يتلاقى مع سياق القصيدة ؛ لأن جميعها فى بيان آداب وأخلاق كريمة قد تأدبوا عليها فشب عليها الصغير، وشاب فيها الكبير، وهذا ما يشير إليه قوله :

شباب تسامى للعلا وكهول

ولذلك — أيضاً — جعلها حكمة عامة لكل الأمم ؛ فلم يقيد ذلك بالعرب وحدهم أو المسلمين ... بل جعلها شاملة فقال : " إذ المرء .. " ولهذا فتعريف المرء بـ " ال " لإرادة الجنس، وإن كان فيه رائحة العهد عن طريق التعريض المستقى من قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ∴ فقلت لها إن الكرام قليل

وبناء النظم على النفى فى قوله : " لم يدنس من اللوم عرضه " دون ما يقابلها من اكتساب المروءة والحمد ... للتنفير والتقبيح ؛ ذلك لأن إثارة الدنس واللوم وهو اسم لخصال

(١) ينظر : يعقوبى ٣٩/٢ .

(٢) ينظر : أغراض ذلك عند البلاغيين فى : المفتاح / ٢٤٠ — ٢٤٦ ، والإيضاح / ٥٤ — ٥٧ ، والشروح

٣٩/٣ — ٧٠ ، والتجريد ٢٣٤/١ — ٥٠٣ .

(٣) ينظر : الفروق اللغوية / ٣١٠ .



تجتمع من البخل واختيار ما تتيه المروءة والصبر على الدنية، ودناءة النفس والآباء<sup>(١)</sup>، ثم جعل ذلك مستنداً إلى العرض وهو أغلى ما عند العربي كل ذلك يقبح سلوك القوم ويغري بصفات الكريم، ولذا قال زهير<sup>(٢)</sup> :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه .: يعزه ومن لا يتق الشتم يشتم

حيث آثر : " من دون " للدلالة على أنه يجب أن يكون العرض أعلى من كل شيء معروف، مالا كان أو جاهاً أو سلطاناً أو غير ذلك ... كل ذلك يجب أن يكون " دون " العرض لا مساوياً له .. ؛ لأن في صيانة العرض كل الكسب وفي هوانه كل الخسارة .. كل ذلك يقبح سلوك اللؤم ويغري بصفات الكريم

وإثارة الفعل المضارع : " يدنس " لإرادة التجديد والحدوث، دلالة على تكرار فعل القبيح منه آناً بعد آناً كما هي دلالة الفعل المضارع عند البلاغيين .<sup>(٣)</sup>  
وإثارة الاستعارة في قوله :

فكل رداء يرتديه جميل

لمعنى قصده الشارع ؛ ذلك لأن القصد فكل عمل يعمل بعد تجنب اللؤم يكون حسناً ...  
فليس ذلك كقول عمرو بن معد يكرب :

ليس الجمال بمنزور .: فاعلم وإن رديت برداً<sup>(٤)</sup>

والتعبير بالرداء استعارة تصريحية بليغة، لدلالاتها على احتمال العمل للإنسان كاحتمال الثوب للابسه،

ثمّة أمر آخر وهو دلالة الاستعارة كشف العمل عن معدن صاحبه وبيانه له، كما يشف الرداء عن لابسه ويميزه ..

وهي استعارة مرشحة بقوله : " جميل " لأنها تلائم الثياب ..

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٠/١ .

(٢) ينظر : شرح المعلقات السبع للزوزني / ٣٢ .

(٣) ينظر : الدلائل / ١٧٥، والإيضاح / ٥٣ .

(٤) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٠ .



لها <sup>(١)</sup>... وهذا بعيد متعسف ..

والوجه الأول هو الأرجح ؛ ذلك لأن من عادتهم — قديماً — حل أنفسهم على ما تكره في سبيل بلوغ الشاء والحمد .. كما قال أبو فراس :

قومون علينا في المعالي نفوسنا .. ومن يخطب الحسنة لم يغلبها المهر  
وقول بعضهم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاويها .. وما شيمة لي غيرها تشبه العبد  
ويأنفون من ضيم غيرها لها، ويعدونّه تذلاً، وربما رموا بأنفسهم المهامة والقفار ولم يرضوا بالذل والضيم من الغير .. تدبر قول الفرزدق :

إن تصفونا يا آل مروان نقرب .. إليكم وإلا فأذنوا ببعاد  
فإن لنا عنكم مزاحاً ومذهباً .. بعيس إلى ربح الفلاة صواد  
وفي الأرض عن ذى الجور منأى ومذهب .. وكل بلاد أوطنت كبلادى  
فإذا لم يكن له صبر على الاحتضام، ولا طريق إلى الانتقام، فلا ثالث لهما إلا الانتقال...<sup>(٢)</sup>  
وزيادة " حسن " فلم يقل فليس إلى الشاء = زيادة في المبالغة لأن قصدهم إلى حسن الشاء  
وليس إلى الشاء المطلق ؛ ذلك لأن الحسن فيه معنى العموم والشمول، فهو يكون في الجملة  
والتفصيل، وفي الأفعال والأخلاق <sup>(٣)</sup> ..

وفي تكثير " سبيل " معنى التقليل، أى سبيل إلى طلب الذكر الحسن، ولو كان قليلاً .  
والبيتان مبنيان على حذف الفعل " المسند " بعد " إذا " إذ التقدير لا محالة — في الأول —  
إذا لم يدنس المرء عرضه — وفي الثاني — إذا لم يحمل المرء ... وفي حذفهما زيادة تأكيد لتكرار  
الإسناد ...

(١) السابق / ١١١ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ٦٧٦ .

(٣) ينظر : الفروق اللغوية / ٢٩١ .

كذلك قد بنى النظم على رواية المرزوقي — على الفصل . لأن الشاعر قد أراد التعداد...  
أما على رواية التبريزي: " وإن هو " فيكون قد عطف الكلام الثاني على الأول لدخوله  
فيه، واندراجه معه في الحكم ...

وفي استهلال القصيدة بمذنين البيتين براعة استهلال وحسن افتتاح لتعلقها بما في القصيدة  
من معان متعددة، وأغراض متنوعة ..

أما البيت الأول فله تعلق وصلة بقوله : " تعبرنا أنا قليل " وما بعده؛ إذ فيه رد معنى  
لتعبرها إياه، فهو لم يندس عرضه بلؤم، فليس ثم ما يعبره به ...

أما البيت الثاني إذا المرء لم يندس من اللؤم .. الخ فله تعلق بكل الصفات التي ذكرها  
لقومه من المنعة والقوة، والشجاعة والنجدة .. لأنه بذلك يكون قد بين طريق اكتسابهم لها ...

تعبرنا أنا قليل عديداً .: فقلت لها إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياها مثلنا .: شباب تسامى للعلا وكهول

وما ضرنا أنا قليل وجارنا .: عزيز وجار الأكثرين ذليل

في هذه الأبيات إلى نهاية القصيدة يؤثر الشاعر فيها ضمير الجمع في بيان الصفات  
الحميدة، ورد ما يشينهم ...

وضمير الجمع هنا دال على الفخر القبلي الذي يندمج فيه الشاعر في قبيلته، ويذوب فيها،  
وهذا يدل على اعتزازه بقومه، وافتخاره بالانتساب إليهم، ويكون ذلك غالباً عندما يكون الشاعر  
ذا ذكر فيهم، وشأن بينهم .. وهذا يمثل واضحاً عمرو بن كلثوم في معلقته ...

وهذا وجه مقابل للفخر الذاتي، حيث ينكفي الشاعر على نفسه، فيعلى من قدرها ويبين  
مآثرها ... ويكثر ذلك عندما يضاف الشاعر في قومه، أو عندما لا يجد مكاناً بينهم ... أو يكون في  
مبدأ أمره .. وهذا يمثل عترة في فخره ..

ومن ثم فإننا — ضمير الجمع هنا في جميع القصيدة يدل على معنى آخر غير الفخر  
والاعتزاز وهو علو شأنه بينهم فهو تكلم بلسانهم، ورضاه عن قومه فهو ينافخ عنهم، ولذلك تراه  
في الرد والمنافخة يرجع إلى ضمير الأفراد : " فقلت لها " ليدل على أنه المدافع عنهم عند  
المقابلة... والمبين لمجدهم عند المفاخرة، ثم فيه معنى آخر وهو الدلالة على الشمول في الذوات، أي



ولكن يلاحظ أن العطف بالفاء هنا في : " فقلت " له غرض أرادته الشاعر وهو سرعة رده عليها، حتى إنه لم يكن فاصل بين قولها له ورده عليها، دلالة على ثورته من قولها وأن مآثرهم لا تنكر فهي مشهورة ...

فالقول الفصل في الفصل والوصل أنه تابع للأغراض والمقاصد التي تؤم وتقصد وليس مطرداً في كل موضع يأتي فيه ... وهذا إن تتبعته في النظم العالي تجده بيناً ... وإيثار القول على الجواب وما شاكله ليدل على أنه واجهها به، ورد عليها قولها مباشرة، وهذا أدل على الانتصار والغلبة ..

وإيثار " قليل " بالافراد تأكيد للقلّة، سواء في رده لها أو في إقامتها لهم .. وفي قوله : " إن الكرام قليل " معان متعددة من ولوع الدهر بهم، واعتيام الموت إياهم وقلة النسل فيهم، واستقتانهم في الدفاع عن أحسابهم، وإهانتهم كدائم نفوسهم مخافة لزوم العار لهم، ومحافظتهم على عمارة ما ابتناه أسلافهم، وكل ذلك يقلل العدد ويقصر المدد .. (١)

وكل تلك المعاني المذكور هي من دواعي الفخر عندهم، فأما ولوع الدهر بهم، واعتيام الموت إياهم، فهو معنى شريف عندهم لدلالته على كرمهم، وإلى هذا ذهب طرفة في قوله : أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى .: عقيلة مال الفاحش المتشدد (٢) وكذلك قول دريد بن الصمة : (٣)

أبي القتل إلا آل صمة إقم .: أبو غيره والقدر يجري إلى القدر  
فإما ترينا لا تزال دماؤنا .: لدى وائر يسعى بها آخر الدهر  
فإنا للحم سيف غير نكرة .: ونلحمه حيناً وليس بذى نكر

وكذلك من اعتزازهم وفخرهم باستقتانهم بالدفاع عن أحسابهم قول بشامة النهشلي : (٤)  
إنا لترخص يوم الروع أنفسنا .: ولو نسام بها في الأمن أغلينا

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٢ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني / ٦٢ .

(٣) شرح ديوان الحماسة ٨٢٤، ٨٢٥ .

(٤) السابق : ١٠٤ - ١٠٧ .

إني لمن معشر أفنى أوائلهم .: قول الكماة ألا أين الخامونا  
ويلاحظ أن الشاعر قد بنى كلامه على الأسلوب <sup>(١)</sup> الحكيم أو القول بالموجب <sup>(٢)</sup> حيث  
سلم لها دعاها ولكنه عدل بها إلى طريق آخر وهو أن قلة العدد هنا ليست دالة على ما يعبر به،  
بل هي لمعان سامية، وحكم جليلة أشرت إليها سابقاً ..

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلٍّ أَدْنَىٰ خَيْرٍ لَّكُمْ  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ زَيْمُونٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> فإن كان المراد تسليم القول بما قالوا، ثم  
العود إلى دحض قولهم ورده فهو من القول بالموجب، وإن كان المراد صرف كلامهم إلى الأولى  
والمهم فهو من الأسلوب الحكيم ... <sup>(٤)</sup>

وكذلك الأمر في البيت وإن كان الوجه عندي إلى عده من القول بالموجب على الضرب  
الأول وهو وقوع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له الحكيم، فيثبت في كلامه تلك الصفة  
لغير ذلك الشيء <sup>(٥)</sup> .

وهذا هو المراد في البيت ؛ فإنه اعتراف بقلة عددهم ولكن لا على الصفة التي ذكرها  
وجعلتها داعياً للتعير، بل على وجه آخر وهو الدلالة على كرمهم، ألا ترى أنه رجع عليه بالنفي  
في البيت الثاني في قوله :

وما قل من كانت بقاياها مثلاً .: شباب تسمى للعلا وكهول  
وإثارة : " الكرام " في قوله : " إن الكرام قليل " لدلالته على وجوه كثيرة ومعان  
متعددة، فهو يدل على العزة، والجود، والحسن، والتفضل، والسيادة ... <sup>(٦)</sup> وهذا أدل على الفخر

(١) هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتزليل سؤاله مزلة  
غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له . الإيضاح / ٤٦ .

(٢) هو الحكم بموجب أمر أثبت لشيء من غير ذكره أو بموجب التعلق المذكور . الإيضاح / ٢١٥ .

(٣) التوبة / ٦١ .

(٤) ينظر : اعتراضات الشيخ الطاهر / ٦٦٨ .

(٥) الإيضاح / ٢١٥ .

(٦) ينظر : الفروق / ١٩٨ .

وأشبهه بالسياق ..

وما قل من كانت بقاياها مثلنا .: شباب تسامى للعلا وكهول

العطف بالواو هنا لأن البيت داخل تحت رده السابق، أى قلت لها كذا وقلت لها كذا ..

وتعدد وجوه الرد هنا دلالة على امتلاء نفسه بالجواب، وانفعاله بقولها ... وتعدد وجوه

الرد وتنوعها، فهي كثيرة لأن في فضائلهم ومناقبهم ما يطيل زعمها ...

والنفي بـ " ما " متلاق مع الدعوى السابقة منها ؛ لأن النفي بـ " ما " يكون جواباً عن

الدعوى ... (١)

ورجوع الضمير في " بقاياها " مفرداً على لفظ " من " في قوله " من كانت " لأن لفظها

مفرد، للحمل على اللفظ ..

ولو حمل على المعنى لقال : " بقاياهم " بضمير الجمع ؛ لأن معناها جمع، وكلاهما جائز في

العربية، قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ (٢) فحمل على معنى " من " فجمع دلالة على

كثرة المستمعين، ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ (٣) حملاً على لفظ " من " فأفرد ... دلالة على

قلتهم. (٤)

ولكن يبقى سؤال هنا، وهو إذا كان كل من الوجهين جائزاً فلم حمل على اللفظ فأفرد ؟

القول بمراعاة الوزن لا يعين عليه شيء، فذلك غرض لفظي لا يعتد به عند التحقيق. وأرى

أنه أفرد هنا لدلالته على القلة والندرة في النفي، ونفى القلة هنا فيها معنى العدم ...

ويلاحظ أن الشاعر هنا قد نفى القلة بعد أن أثبتا ؛ لأن الجهة منفكة، إذ النفي هنا

منصب إلى لازمها من قلة القدر والغناء، والمروءة .. بخلاف الإثبات في الواقع فهو في العدد .. ولا

تلازم بينهما كما يشهد به واقع المسلمين اليوم ... فهم كثير ولكن غشاء كغشاء السيل ... وغيرهم

قليل ولكن في الغناء والقدر يبنوهم ...

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ٣٤٩ .

(٢) يونس / ٤٢ .

(٣) يونس / ٤٣ .

(٤) ينظر : البرهان للكرمانى / ٢٢٣ .



كما أن الشاعر هنا قد نفى المثلية : " مثلنا " دون الشبه أو غير ذلك؛ لأن مثل تدل على الاتحاد التام والتكافؤ في الذات والصفات، فهو الشبه من جميع الوجوه لذاته .. (١)

وتنكير : " شباب " و " كهول " للتعظيم والتفخيم، وهذا يتلاقى مع سياق الفخر بقومه والاعتداد بهم ...

وتقديم " شباب " على " كهول " يمكن أن يكون لمراعاة القافية لأنها مبنية على الـلام المضمومة، ثم فيه معنى آخر، وهو أن الصفات المذكورة بعد ذلك من مقارعة الأبطال ونزال الكماة هي بالشباب ألصق، فلذا قدم هنا، لمراعاة السياق ..

واكتفى الشاعر بوصف الشباب : " تسامى للعلا " فحذف هذه الصفة مع الكهول للدلالة ما تقدم عليها ... وليدل على المساواة في المكارم وجليل الصفات بينهما ..

وما ضرنا أنا قليل وجارنا .. عزيز وجار الأكثرين ذليل  
هذا معطوف على سابقه داخل تحته في رد دعواها استلزام القلة في العدد لقلة القدر والغناء كأنه قد ذكر عوامل متعددة تمنع من تحقيق قولها .

ووجه العطف هنا — فوق ما تقدم — هو دفع ما يترهم من كون اكتساب المعالي، والترقي في درجات الفضل سبباً لذل جيرانهم، بل لعزهم ...

والكلام مبنى على التعريض بعشيرة من جاذبه الكلام، وجعل القلة سبباً في نزول الدرجة ... بأن جار من هم العدد والكثرة في ذل .. (٢)

و " ما " في قوله " وما ضرنا " لها وجهان :

— فهي — في وجه — نافية، أى : لم يضرنا ... والنفي بـ : " ما " لرد الدعوى السابقة بأن قلة عددهم قد تضر بهم ....

— وهي — في وجه آخر — للاستفهام، والمعنى : أى شيء يضرنا (٣) وحالنا كذا وكذا ...

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ١٧٥، ١٧٦ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي / ١١٢، ١١٣ .

(٣) السابق / ١١٣ .

وحمل الكلام على الاستفهام التقريرى أولى ؛ إذ إنه يدل على ثقة المتكلم بالأمر حتى إن المخاطب لا يستطيع الإنكار، ولا يلزمه إلا التسليم بالحكم، ثم فيه معنى آخر وهو أن هذا الأمر مقرر ثابت، قد اشتهر بين الناس .

ويمكن أن يكون الاستفهام هنا إنكارياً بمعنى النفى، أى : لم يضرنا... وله فضل على النفى الصريح من وجهين :

- ذكر الإمام أن القصد من الاستفهام الإنكارى هو أن يتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ويرتدع ويعى بالجواب ... لأنه قد جوز وجود أمر لا يوجد مثله .. <sup>(١)</sup> وهذا يومئ إلى أن من مقامات الإنكار تكذيب مدع ...

وهذا يليق بمقام رد الدعوى السابقة، فإنه لو تنبه إلى أنها — لقلة — داعية إلى التعزز .. والسمو .. لارتدع عن التهمة السابقة ...

- دلالة الإنكار على معنى التوبيخ، وهذا يتلاقى مع التعريض بذل جيران من جاذبه الكلام ..

- ونفى الضر هنا دون غيره من سوء مثلاً لدلالته على الوقوع من حيث لا يعلم <sup>(٢)</sup> .. فهو أوقع فى النفى ...

وبناء الجملة على الحال فى الموضعين : " وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل " للمقارنة بين حالين متناقضين، فالتضاد اللفظى — هنا — بين عزيز وذليل، والمعنوى بين " جارنا وجار الأكثرين " يزيد من إظهار الصورة واكتمالها، وهذا يلائم التعريض بالآخرين ..

ومن ثم أثر " الأكثرين " ولم يقل : " وجاركم " مثلاً على الخطاب، فالغية هنا لها معنى التوبيخ والتقريع ...

لنا جبل يحتله من نجيره .: منيع يرد الطرف وهو كليل  
رسا أصله تحت الثرى وسما به .: إلى النجم فرع لا ينال طويل  
هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره .: يعز على من رامه ويطول

(١) ينظر : الدلائل / ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) ينظر : الفروق اللغوية / ٢٢٤ .

الأبيات من هنا إلى نهاية القصيدة بيان وتفسير لحسن الثناء المستحق لهم لما لهم من جليل الصفات ..

والخير في البيتين لإظهار عزمهم، وهى الصفة الأولى في هذا السياق الطويل الممتد من الفخر بكرم صفاتهم ...

وكونها الصفة الأولى في معرض الصفات دليلاً على أنهم يبنون عليها غيرها، فليس لذلك ضعيف من مكارم ولا مآثر ..

والتعبير بالجبل عن العز والسمو استعارة تصريحية أصلية، وذكر ما يلائم الجبل (المستعار منه) من صفات متعددة :

يحتله من نجره .: . منيع يرد الطرف وهو كليل

وكذلك قوله : رسا أصله تحت الثرى ..... = ترشيح للاستعارة .

وإشار الاستعارة هنا له دلالات متعددة منبثقة من المستعار منه وهو الجبل، ثم ما أتبعه من صفات تلائم ..

فالجبل فيه معنى الثبات والرسوخ وعدم الزوال ... وكذلك عزمهم ومجدهم هو ثابت لا يزول ..

كذلك فيه المناعة والعصمة من المخاوف والأخطار ... فكذلك عزمهم بمنع غيرهم من الضيم ... فيجبرون من استجار بهم ...

كذلك فيه معنى الملاذ والأمن للطريد ..

كذلك هو يستعصى على من يريده، ويمتنع عنه، فلا ينال، كذلك هم في رفعة الشأن وعلو القدر ...

وتقديم المسند : " لنا جبل " لإرادة الاختصاص والحصر، أى أن لهم وحدهم هذا العز الرفيع، والقدر النيع ..

والشاعر هنا قد آثر التقديم في هذا الموضع الفريد من القصيدة ؛ لأنها الصفة الرئيسية والتي ترتبت عليها بقية الصفات المذكورة بعد ...

وهذه الصفات المذكورة بعد قد بنيت على الجملة الاسمية حيناً والفعلية أحياناً تبعاً للغرض المراد ...

فقوله : " يحتله من نجيره " جاء بالفعل المضارع ؛ لأن تلك الصفة تتجدد على مر الزمان، فيدخل الناس في جوارهم ليتعزوا بهم ...  
ثم فيه شيء آخر وهو أن تلك الصفة ظاهرة مكشوفة للناس، ومعلومة عندهم فأراد تشخيصها وتصويرها ...

وهذا معنى يختلف عن المراد من الفعل المضارع في قوله : (يرد الطرف وهو كليل ) لأن الغرض هنا هو القيد : ( وهو كليل ) ...

وإثارة اسم الفاعل في : " منيع " لدلالته على الثبات والدوام، وهذا البناء يحتمل أن يكون فعيل بمعنى " فاعل " أى : مانع من يستجير به، ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول، أى ممنوع ممن أرادته فيستعصى منه..

والمعنيان يتبادران إلى المتلقى من المقام .. وهذا أدل على رسوخ عزهم وشرفهم ...  
وإثارة المنع على غيرهم من الكف أو الصد .. أن المنع فيه دلالة على قدرة المنوع فهو ما لأجله يتعذر الفعل على القادر، فلا يسمى منعاً إلا إذا كان مع القدرة فهو يضاد الفعل ...<sup>(١)</sup>  
وهذا أبلغ في الافتخار ؛ لأن منع القادر أدل على قوة المانع وعزه، ولذا يصفون قوة أعدائهم وكثرتهم ... ليدلوا على التمدح بقتلهم ...

وهذه الصفات جاءت مفصولة ؛ لأن القصد فيها إلى تعدادها من غير نظر إلى جمع أو انفراد .. كما هو الشأن في فصل الصفات عندهم..<sup>(٢)</sup>

ولذلك عندما أراد المغايرة بين الصفتين، لأنهما متضادتان عطف في قوله : رسا أصله تحت الثرى وسما به .....

وفي ذكر الضمير " وهو كليل " وتقديمه على المشتق دلالة على التقوى والتأكيد لتحقيق الخبر وتقويته ...

(١) الفروق اللغوية / ١٢٨ .

(٢) ينظر : الطراز ٣٤/٢، والأشباه والنظائر للسيوطي ١٢٤/٤ .

وتكرر المسند إليه " جبل " وصفته " منيع " لغرض التعظيم والتفخيم من شأنه أو لبيان النوعية بأنه نوع غير متعارف ... وهذا يقويه حمل اللفظ على غير حقيقته ..

رسا أصله تحت الثرى وسما به .: إلى النجم فرع لا ينال طویل

هذه من صفات الجبل على معناه المجازى .. ولذا أثر : " رسا " على رسخ وثبت ؛ إذ إن الرسو لا يستعمل إلا في الشيء الثقيل نحو الجبل وما شاكله من الأجسام الكبيرة، يقال : جبل راس... راس

فالرسو هو الثبات مع العظم والثقل والعلو <sup>(١)</sup> ؛ ولذا فإيثار الرسو هنا له دلالاته على المستعار له من معاني المستعار منه وإيجاءاته المتعددة...

وهذا أقرب إلى ما ذكره المرزوقي من أن الرسو مجرد الثبات في الأرض، وأن الرسو والرسوخ يتقاربان <sup>(٢)</sup> ؛ إذ يتعدى المراد منها مجرد الثبات، فتأتى مع السفينة كما في قوله — تعالى — : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ <sup>(٣)</sup> تشبيهاً بالجبل لعظمها، وكذا في قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها .: فكل حشف امرئ يجرى بمقدار

وكذا تأتي مع النفوس ؛ إذ المراد الثبات مع العظم والعلو، كما في قول الشاعر :

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة .: من الموت أرسوا بالنفوس المواجه

فالمراد أثبتوها إثباتاً لا تحلحل معه ولا تموج، على هذا قولهم : الجبال الراسيات ... <sup>(٤)</sup>

وفي البيت مقابلة بين المعنى الأول والثاني ؛ إذ : " رسا " يقابله : " سما "، وقوله : " تحت

الثرى " يقابله : " إلى النجم " و " أصله " يقابله " فرع " ..

وهذه المقابلة بين أجزاء المعنيين فيها عمق التصوير وقوته ؛ إذ التضاد بين المعاني يزيد قوة

ووضوحاً ..

والشاعر في بيان ثبات عزهم في الآباء وامتداده إلى الأبناء يكون قد نبه إلى تأصله فيهم،

(١) الفروق / ٣٣٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٤ .

(٣) هود / ٤١ .

(٤) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ٤٩٩، ٥٠٠ .

فليسوا دخلاء فيه .. وهذا ما أشارت إليه الخنساء في قولها :

السيد الجحججاج وابن السا .: دة الششم الجحججاج

فهى لم تكتف بوصفه بالسيادة، بل جعلته متصلاً فيها ...

وهذا المعنى — عندى — أحسن مما أشار إليه المرزوقي من أن المراد عزنا أصله تحت الأرض السابقة وفرعه عند النجم<sup>(١)</sup> ؛ لأن ذلك لا يتعدى وصفه بالثبات وعدم البلوغ بخلاف المعنى الذى أشرت إليه فيزيد عليه تسلسله فيهم من القدم مع ثباته وعظمه ...

وهذا المعنى نقله أبو تمام — ولكنه قصر عنه فيما أرى — فقال :

لنا نبعة فرعها في السماء .: وفي هامة الحوت أعراقها

ووجه ذلك أن الجبل أدل على الثبات والعظم والعلو من النبعة فهو مثل في الصلابة وليس الثبات ...

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره .: يعز على من رامه ويطول

يلاحظ ابتداء أن الشاعر قد رجع إلى الذكر فنص عليه بالضمير (هو) وما ذاك إلا لإرادة تعيينه لأن به يتحقق غرضه من تفخيم مآثره وتعظيم فعال أجداده إذ قد بناه له أبوه (عاديا) ففيه يقول :

بنى لي عاديا حصنا .: وعينا كلما شئت استقيت

وأطما تزلق العقندان عنه .: إذا ما ضامنى أمر أبيت

وقيل بل بناه (سليمان بن داود) — عليهما السلام — بأرض تيماء ويستأنس على ذلك بقول أعشى :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله .: وورد بتيماء اليهودي أبلق

بناه سليمان بن داود حقة .: له أزج حم وطى موثق<sup>(٢)</sup>

(١) السابق / ١١٤ .

(٢) ينظر : معجم ما استعجم للبكري ٩٧/١، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١١٢/١،

وتاج العروس للزبيدي : مادة (بلق) .

وذكر حصنه بهذا الوصف (الأبلىق) مما يرجح نسبة القصيدة إلى السؤال، ذاك لثبوت هذا الوصف لحصنه تاريخاً<sup>(١)</sup>، وإنما أثر الوصف ههنا (الأبلىق الفرد) ليميزه عن غيره من حصون العرب في المنعة والقوة، فقد استعصى على الملوك آنذاك حين قصده الزباء ملك الجزيرة فعجزت عنه، ومن ثم ضربت به العرب المثل في الحصانة والمنعة، تقول : تمرد مارد وعز الأبلىق<sup>(٢)</sup> . ويمكن أن يكون الوصف (الأبلىق الفرد) للكشف والبيان لإثبات صورته كما هي في الواقع، ذاك لأنه كان في بنائه بياضا وحمرة أو كان من حجارة مختلفة الألوان<sup>(٣)</sup> فأراد تمييزه بصورته تلك عن غيره بهذا الوصف .

وانظر إلى تعريف الطرفين في تلك الجملة ومدى تلازمها مع غرضه السابق في تمييزه عن غيره إذ هي لإرادة الحصر والاختصاص؛ إذ هو وحده من بين حصون العرب كان له هذا الوصف سواء قلنا إنه أراد الاحتراز بوصفه بـ(الأبلىق الفرد) عن غيره أو إرادة كشفه وبيانه . وقوله : (الذي شاع ذكره) يروى : (الذي سار ذكره)<sup>(٤)</sup> وهي أقوى وإن كانت الأولى رواية الديوان ذلك لأنها تفيد أمرين :

- التصوير والتشخيص لتلك المآثر بأنها تسير في البلاد تحدث عن حالها ووصفها وتخبر عن عزها وقوتها .

- أنها أدل على استغراق المكان والزمان من الرواية الأولى .

وتجد الشاعر قد فصل بين الجملة الأولى (هو الأبلىق الفرد الذي شاع ذكره) وبين الجملة الثانية (يعز) لأنها بيان وتفسير لما أراده في الأولى من قوته ومنعته فكان بين الجملتين كمال اتصال . وانظر إلى الاستعلاء (على من رامه ويطول) وما فيه من الدلالة على الشموخ بجانب الحصانة والمنعة .

وإنا نقوم ما نرى القتل سبة .: إذا ما رأته عامر وسلول

(١) ينظر : الحماسة البصرية لأبي الحسن البصري ١٩/١، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ١٣٠/٢٢،

(٢) ينظر : معجم ما استعجم للبكري ٩٧/١ .

(٣) تاج العروس (بلىق) .

(٤) انظر : تاج العروس (بلىق) .

يقرب حب الموت آجالنا لنا .: وتكرهه آجالهم فتطول

هذا معنى آخر من معاني " حسن الثناء " حتى كأن تلك الأبيات مجتمعة بسط وتفصيل لما أجمله في تلك الجملة .. ولذلك ترى الشاعر عند كل معنى جديد يأتي بالواو، ليدل على المغايرة .. ولذا يعطف بالواو عند المعاني الرئيسة التي تحتاج إلى وقفات منه وتفصيل ... وإيثار " قوم " في قوله : " لقوم ما نرى " مع إمكان القول وإنا لا نرى القتل سبة .. فيه دلالات وإيحاءات متعددة ...

أولاً : فيه دلالة على أن تلك الصفة من مقومات قوميتهم ؛ إذ لا بد من مقومات متعددة حتى يقوموا بأعباء الحياة ... وتلك الصفة من مقومات قوميتهم ... وهذا أدل على ثبات تلك الصفة فيهم ... ورسوخها بينهم ...

ثانياً : دلالة ذلك على تعاونه في القيام بتلك الآثار، وقوهم في الاتصاف بها، فالقوم " هم الرجال الذين يقوم بعضهم مع بعض في الأمور " <sup>(١)</sup> والقتل والقتال خاص .

ثالثاً : المبالغة في اكتمال هذه الصفة فيهم ... ولذلك ترى الوصف بـ " قوم " في الذكر الحكيم <sup>(٢)</sup> جارية حيث يراد المبالغة في الوصف، كما في قوله — تعالى — : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وغيرها ... إذ المراد إيغالهم في الظلم فاستحقوا البعد لذلك ...

والتأكيد بأن واللام هنا لأن الكلام مع من جاذبه القول وعيره، فهو ينكر تلك الصفات ... فالتأكيد لرد إنكاره ...

وقد يكون التأكيد — هنا — لامتلاء نفس المتكلم بتلك المعاني النبيلة والمعاني الشريفة، فهو منفعل بها ... وهذا أقرب إلى سياق الفخر وادعاء أن ذلك معروف ومشهور عند الناس، فهو لا ينكر ...

(١) الفروق / ٣١٣ .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس / قوم .

(٣) هود / ٤١ .



ويلاحظ أن الشاعر — هنا — يسير على وتيرة واحدة في النفي، فقد رأيت سابقاً كيف آثر في النفي " ما " دون : " لا " ... وكذلك هنا قد نفي بـ " ما " في قوله : " ما نرى القتل سبة " .... وما ذاك إلا لأنه في معرض رد الدعوى ومجاذبة الكلام مع مدع ... و " ما " في النفي لرد الدعوى ...

وكان وجه الكلام أن يقول : ما يرون القتل سبة، حتى يرجع الضمير من صفة القوم إليه ولا تعرى منه .... لكنه لما علم أن المراد بالقوم " هم " قال : ما نرى، وقد جاء في الصلة مثل هذا وهو فيه أفظع. قال :

أنا الذى سميتى أمى حيدرة

والوجه : سمته، حتى لا يعرى الصلة من ضمير الموصول .. (١)

هذا ما ذكره المرزوقي وهو في تعليقه بالعلم بالضمير فصح ذلك = ضعيف ولكنه — عندى — متلاق مع سياق الفخر والاعتزاز بجميل الصفات ... ولا ريب أن ضمير المتكلم ألصق بالفخر وأشبه ... وهذا بين في هذا الموضع فضمير العظمة " نرى " أشبه بالفخر ... كذلك في قول الإمام على ...

ودقة الكلمة هنا بادية عند أدنى تأمل ؛ فإيثار القتل هنا على الموت لأن المراد هنا نقص البنية في المعركة ... وهذا يتمدحون به ... كذلك، وكذلك إيثار " السب " : " سبة " لأن المراد منه " الإطتاب في الشتم " (٢) وهو ما يجلب العار والمنقصة، وهو ما نفاه عنهم وأثبته لغيرهم ... وجاء الكلام على النفي : " ما نرى القتل سبة " ولم يأت على الإيجاب كأن يقول مثلاً وأنا لقوم نرى القتل فخراً مثلاً ؛ لأنه في معرض رد اتهام، فنفي عنهم ما يدعيه غيرهم عليهم ... والتقيد بـ " إذا " في الشطر الثاني : " إذا ما رأيته عامر وسلول " لتحقيق حدوث ذلك منهم، ولذا زاد " ما " زيادة في التأكيد ..

(١) شرح ديوان الحماسة / ١١٤، ١١٥ .

(٢) الفروق / ٦٤ .

وإفراد الضمير لإرادة القبيلة بأسرها، حيث إن ذلك منهم كلهم لا يشذ في ذلك أحد ... وهذا أدخل في التوبيخ والذم ..

وانظر كيف ناسب نفى الرؤية منهم بإثباتها لهم في : " إذا ما رأته " وليس المراد منها حقيقة الرؤية ؛ بل اتخاذ ذلك مذهباً في الحياة ... فهذا الطباق بالسلب له وجه في إبراز التضاد في الصفات بينهم وبين هؤلاء ...

يقرب حب الموت آجالنا لنا .: وتكرهه آجالهم فتطول  
هذا معنى شريف قصده الشاعر، حيث جعل " حب الموت " منهم سبباً لعزهم الذي أشار إليه سابقاً، وجعل كراهية الموت سبباً لمذمة عامر وسلول وقرعهم بلازمة من المذلة ...  
وفي إسناد " يقرب " إلى " حب الموت " مجاز عقلي لعلاقة السببية هنا ؛ لأن ذلك سبب لدنو آجالهم وليس فاعلاً حقيقياً له ...

وفي هذا الإسناد دلالة على قوة السببية، أى أنهم يغتبطون لاقتحامهم المنايا وحرصهم على ملابسة الحروب ...

وكذلك الأمر في قوله " وتكرهه آجالهم فتطول " حيث جعل كراهية الموت سبباً لطول آجالهم ...

والإضافة هنا في قوله : " حب الموت " لها وجهان :

- إما إضافة إلى المفعول، ويكون التقدير يقرب حبنا الموت، وبهذا يكون مقابلاً لقوله وتكرهه آجالهم فتطول ...

والإضافة إلى المفعول هنا تحقق فائدتين :

أولاً : لفظية في تحقيق المقابلة التامة بين الشطرين، وبهذا يكون نسجاً على منوال البيت السابق ... وعلى ذلك يختلف المجاز العقلي في التقدير وإن كان للسببية، فجعل حبهم هم للموت سبباً لذلك ..

ثانياً : المبالغة في وصفهم بطلب الموت والسعى له، وحرصهم عليه في لقاء الأعداء ؛ دفعاً للذل وطلباً للعلا ... وإن أدى ذلك إلى قلة عددهم ...

- وإما أن تكون الإضافة إلى الفاعل، ويكون المعنى : يقرب حب الموت لنا آجالنا ... ويكون

ذلك جريا على قول متمم بن نويرة ..<sup>(١)</sup>

فلا تفرض يوما بنفسك إنسى .: أرى الموت وقاعا على من ترفعا  
والمقابلة هنا متحققة على التأويل، أى : إذا كرهت آجالهم الموت فقد كره الموت آجالهم  
— أيضاً ...

والمعنيان متقاربان، بل مرادان، لأنهم إذا أحبوا الموت أحبهم الموت، كذلك إذا كرهت  
عامر وسلول الموت فالموت يكرههم ... فهناك علاقة بينهما ...  
وروى البيت :

يقصر حب الموت آجالنا لنا .....

ووجه ذلك هو المقابلة بين : " يقصر " و " يطول " ...  
ورده المرزوقي بأنهم لا يراعون مثل هذا إذا تناسبت المعاني وتقابلت ويكون ذلك منهم  
كالترى من التكلف ..

واستشهد المرزوقي بقول أبي ذؤيب الهذلي :

وشيك الفضول بعيد القفول .: إلا مشاحا به أو مشيحا

فقد كان يمكنه أن يقول : بطل القفول، ولكنه لم يراع ذلك .<sup>(٢)</sup>

ومبنى رد المرزوقي — كما ذكرت في موضع آخر —<sup>(٣)</sup> على أن مراعاة البديع على

حساب تناسب المعاني غير سديد ... فقد عدل القرآن عن البديع لمراعاة معنى لا يتأتى معه، كما  
في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> فلم يقل بمصدق لأنه أراد بجانب  
التصديق الاطمئنان القلبي ... وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾<sup>(٥)</sup>  
فلم يقل : وتدعون أحسن الخالقين لأنه أراد معنى آخر وهو زيادة التقيح والتوبيخ لأن " وزر "

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي / ١١٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٦ .

(٣) ينظر : اختيارات المرزوقي في البلاغة للمؤلف / ٦٥ وما بعدها — ط أولى ٢٠٠٣ مطبعة السلاموني.

(٤) يوسف / ١٧ .

(٥) الصافات / ١٢٥ .

فيه معنى الترك مع التقبيح والازدراء وهذا أدل على توبيخهم ...  
وكذلك الأمر في البيت فرد المرزوقي — هنا — مبنى على أن البديع هنا لا حاجة إليه،  
وإذا كان كذلك كان تكلفاً ...

وكلام المرزوقي في مجمله حسن، ولكنه عند التطبيق على هذا البيت — في نظري — غير  
سديد، فرواية يقصر — عندي — أدل وأقوى.

أما كونها أدل على الغرض المراد، لأن القصر أدل على المراد من القرب ؛ لأن القرب لا بد  
من حاجز معه كما ذكر أبو هلال فلا يدل على بذل الأرواح والنفوس وهو المعنى الذى أرادته ...  
أما كونه أقوى فلأن ذلك يكمل صورة المقابلة من وجوها المختلفة ...

ودقة الكلمات في البيت تزيد من المقابلة هنا، فاختار " حب " في مقابلة " تكرهه " لها  
إيحاءات متعددة ..

فالحب يكون فيما يوجه ميل الطباع والحكمة معاً، وكذلك تجرى المحبة على الشيء  
ويكون المراد غيره، فإذا قلت : أحببت زيداً، المراد أنك تحب إكرامه ونفعه ..<sup>(١)</sup>

وهذا المعنى يتلاقى مع الغرض من الأبيات ؛ لأن جبههم للموت ليس لذاته، بل لما فيه من  
الحكمة الجليلة من حسن الشاء والعزة والأنفة ودفع الضيم ... الخ

وجاء في مقابلة " تكرهه " لأن الكراهة لا يستلزم الامتناع والإباء، فلا يمتنعون من الموت  
— أيضاً — إذا جاء ... ومن ثم ففيه تنبيه إلى أن طول آجالهم أمر مقدر وليس مستلزماً لكرههم  
الموت ..

ولكن هذا قد لا يساعد عليه العطف بالفاء التى تدل على معنى التسبب والترتيب ولكن  
السبب قد تخلف ..

كذلك فإيثار " الأجل " في الموضعين : " آجالنا " آجالهم فيه تنبيه إلى هذا وهو أن لذلك  
وقت مضروب لانقضائه ...

(١) الفروق / ١٣٨ - ١٤٠ .

وكذلك يدور في كلامهم فأجل الإنسان : هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدين : محله .. وأجل الموت : وقت حلوله ...<sup>(١)</sup>

وما مات منا سيد حتف أنفه .. ولا طل منا حيث كان قتيلا

تسيل على حد الطبات نفوسنا .. وليست على غير السيوف تسيل

هذا معنى آخر متولد من سابقه، وهو أصل لما بعده ؛ فلذا عطف بالواو لوجود المناسبة من وجه والإرادة التنويع في تعداد مآثرهم من وجه آخر ..

وهكذا تجد الأبيات مبنية على القبض والبسط في المعاني ؛ حيث يأتي بمعنى رئيس يعطفه على سابقه ويأخذ في تفصيله من غير عطف .. فإذا انقضى منه جاء بمعنى رئيس آخر .... وهكذا...

وهذه الجملة المنفية بـ " ما " لرد الدعوى السابقة من استلزام القلة للهوان = تفيض فخراً وعزاً ؛ على سبيل الأولى ؛ فإذا كان ذلك مطرداً مع السادة فيهم فهو مع من دونهم أولى ... وهذه عندهم من أحسن الميتات وأشرفها ...

والشطر الثاني من البيت فيه تكميل أو احتراز عما يظن من كثرة القتل فيهم نتيجة لضعفهم ومآلهم ... فنبه على أنهم لا يهتمون بأنفسهم، بل يدركونه حيث وقع ...

وقوله : " مات حتف أنفه " مبنى على اعتقادهم أن الإنسان إذا مات على فراشه خرجت روحه مع أنفاسه من أنفه عند نزوع الروح ...

وخص الأنف بذلك لأنه من جهته ينقضى الرمح<sup>(٢)</sup> ... وهذا يكون خروج الروح على مرات متعددة ...

بخلاف المقتول في ساحة المعركة فيعتقدون أن روحه تخرج دفعة واحدة من موضع جرحه ..

وبناء الكلام في العربية يكون على حسب الاعتقاد — غالباً — وليس على مراعاة الواقع

الفعلی ... تدبر قوله — تعالى — : ﴿ وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾<sup>(٣)</sup> فالقلب

(١) السابق / ٣٠٤، ٣٠٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١١٧ .

(٣) الأحزاب / ١٠ .

لا يتحرك من مكانه حتى يبلغ الخنجره ... ولكنهم يعتقدون أن قلب الخائف كذلك ... فبنى الكلام على اعتقادهم ..

كذلك تدبر قول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب :

ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكراً .: وأترك في بيت بصعدة مظلّم

فقد بنت الكلام على اعتقادهم أن المقتول إذا أخذ ثأره أضاع قبره، وإذا قبلت ديتة أظلم

قبره <sup>(١)</sup> ...

والتعبير : " مات حتف أنفه " ليس على حقيقته، بل على المجاز المركب، وتولد عنه كناية

عن الجبن ... وهذا باد في قول خالد بن الوليد — رضى الله عنه — عند موته : " وها أنا ذا أموت

على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء " ...

وقد ذكر التبريزى <sup>(٢)</sup> أن هناك رواية أخرى وهى : وما مات منا سيد في فراشه ....

البيت، وهى رواية تؤيد من يجعل القصيدة جاهلية ...

والروايتان فيهما شبه بالسياق ودلالة على الغرض المراد بيد أن الرواية الثانية أكثر تلاؤماً

لما فيها من إرادة العموم في نفى سوى ما ذكره؛ ذلك لأنه ليس المراد نفى أخس الميتات فحسب ...

وإنما إثبات كرمها ...

ثم إن نفى الموت في الفراش شامل لإثبات الموت في المعركة وهو ما يرمى إليه في بيته ...

لأن هذا غاية ما يتحمد به الفتاك وأبناء الحروب، وعد ذلك مكتوباً عليهم، كما في قول عمر بن

أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينا .: وعلى الغايات جر الذبول

ويعتدرون عمن مات في غير حرب ولا قتال، كما في قول الشاعر :

محمد من سنا بك لا بدم .: أبا قران مت على مثال <sup>(٣)</sup>

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ٢١٧ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة للتبريزى / ١٨٠ .

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى / ١١٧ .

والنفى في الشطر الثاني : " ولا ظل منا حيث كان قتيل " على الفعل : " ظل " دون أهدر ؛ لأنه أراد بظل ولم يطلب به ، بخلاف : " أهدر " فهو إباحة الدم <sup>(١)</sup> .. والمراد نفى الأول .. والإطلاق في : " حيث كان قتيل " يدل على نهاية القوة ، وغاية الشجاعة ، فلا يقوم لهم أحد ، بل يطلبون ثأرهم حيث كان ومع من اتفق ..

والبيت الثاني :

تسيل على حد الطبات نفوسنا .∴ وليست على غير السيوف تسيل  
تفسير وبيان وتفصيل لسابقة ؛ ولذا فصله عن سابقه ولم يعطفه عليه ، فقد زاد فيه ما فهم من التعبير بالسيد في البيت السابق دلالة على العموم ، في التعبير بالأولى وهو مفاد الجمع في النظم : " نفوسنا " ...

وفي البيت قصر عن طريق الإثبات والنفى ، حيث أثبت صفة ونفى غيرها عنهم .. وهذا طريق للحصر غير معهود عند البلاغيين ، إلا أن فيه إطناباً بتكرير الكلام مرتين عن طريق اللفظ ، بخلاف بقية الطرق الأخرى ففيها اتكاء على المفهوم ...

بيد أنها تزيد عنها الفخامة والوكادة نتيجة للتصريح بالتصريح بالمشبث والنفى وهذا يدل على الاعتناء والاهتمام بالمعنى المراد ...

وقال " تسيل " في الموضعين دون تخرج أو غير ذلك ؛ لدلالة السيولان على معنى الخروج في سهولة وسرعة ..

وتكرار السيوف جار على تكرار أسماء الأجناس والأعلام المقتضى التفخيم وهذا كثير عندهم .. <sup>(٢)</sup>

وروى البيت : تسيل على حد السيوف ...  
والإضافة على الوجه الأول تكون على أحد معنيين :

(١) الفروق / ٣٤٤ .

(٢) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير / ٤٣ د/ عز الدين علي السيد — دار الطباعة المحمدية .

- إما أن يكون أراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد إليها، وعليه يكون المراد كما في الرواية الثانية ..

وعلى هذا يكون في قوله : " الظبات " مجاز مرسل لعلاقة الجزئية، فعبر بالجزء وهي الظبات وأراد السيوف ...

وذلك لأن الجزء هنا مهم - في سياقه - لوجهين :

- لأنه أصل السيف ومعتمده الذي به القتل والقتال، والحرب والضرب، ومن ثم فلا يقوم الكل - السيف - إلا به ..

- أن الكلام في القتل وخروج النفوس وهذا له تعلق بالظبات لأنها أداة ذلك...

- وإما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات كإضافة البعض إلى الكل، ويكون التقدير : تسيل على الحد من الظبات، وتكون الظبات مضارب السيوف ..<sup>(١)</sup>

والوجه الأول أليق للدلالة المجاز على معنى التعظيم والتفخيم ... ومبنى الفخر في البيت في تقييد قتلهم بالسيف وحده = وهو أن الدماء قد تسال بالعصى وبغيرها مما لا يكون شرفاً<sup>(٢)</sup>، فعد القتلة التي تكون بالسيف أكرم، ألا ترى كيف التخر دريد بن الصمة بذلك في قوله :  
فإننا للحم السيف غير لكيرة .: ونلحمه حيناً وليس بذي نكر<sup>(٣)</sup>

وفي البيت رد العجز على الصدر، حيث نفى ما أثبتته أولاً، فابتدأ البيت بقوله تسيل، وختم بها البيت أيضاً، والكلمتان متفقتان في اللفظ والمعنى ...  
وله وجه من البلاغة ظاهر في التقرير والتوكيد ؛ لأنه إذا كرر كلامه وأعاده أدى ذلك إلى تقرير عند المخاطب ...

كذلك هو نوع من الربط بين أجزاء الكلام، فيشتد ارتباط ثان بأول وهو من النظم العالي..

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٧، ١١٨ .

(٢) كما في قتل حجر لبني أسد بالعصى فسموا عبيد العصا . المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٨، ٨٢٥ .



وتقديم المتعلق : " على حد الطبات " لأنه المهم في الكلام ؛ إذ الغرض يتعلق به أولاً لكونه موطن الفخر والاعتزاز عنده، لذا قدمه ...

ولهذا المعنى — أيضاً — قدم المتعلق — على غير السيوف — على الفعل تسيل ؛ إذ المراد وليست تسيل على غير السيوف، فضلاً عن اقتضاء القافية ذلك ...

وإثارة الفعل المضارع في الموضعين : " تسيل " للدلالة على وقوع ذلك فيهم في المستقبل واتصاله بذرياتهم من بعدهم ...

ثم ما في الفعل من التصوير والتشخيص يبرز الموقف جلياً أمام المتلقى كأنه يراه ويشاهده، وهذا يكون في الأمور المهمة ..

ويلاحظ أن الشاعر قد عدى الفعل تسيل بـ " على " في الموضعين ويمكن أن يتعدى بالياء لما فيها من معنى السبية، أي تسيل بسبب السيوف.. كما تقول قطعت بالسكين ... ولكنه أراد معنى الاستعلاء في الميتة، لما فيها من الفخر والشرف، وهذا ما تقوم به " على " ....

صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا .: إناث أطابت حملنا وفحول

علونا إلى خير الظهور وحطنا .: لوقت إلى خير البطون نزول

فنحن كماء المزن ما في نصابنا .: كهام ولا فينا يعد بخيل

هذه الأبيات لها تعلق بما قبلها، واتصال بها وثيق، ذلك لأن ما تقدم من إشار كريم الموت وما يعلى من القدر ... الخ لا يكون إلا من كرم المناصب والمناسب وطيب المنبت والمغرس، وصفاء أنسابهم وخلوصها مما يكدرها فالكريم يختار ما يعلى به ...

ولذلك فصل الشاعر هنا ولم يعطف مخالفاً ما تقدم عند اختلاف الأغراض والمقاصد لأن ذلك كالجواب عن سؤال اقتضه الأبيات السابقة عن السر في اختيارهم شريف القتل وكريمه على مجرد الحياة ... فكان الجواب في هذا ضمناً وهو لطيب مغرسهم وطهارة نسبهم فلم يكدره بما يشين ويقبح ...

ويلاحظ أن الشاعر هنا قد ذكر الصفة وضدها، فلم يكتف بذكر: " صفونا " بل عطف عليه : فلم نكدر، وذلك لأنه أراد المبالغة في الصفاء في جميع الوجوه وفي كل الأوقات ...

ذلك لأن الاتصاف بالصفة لا تمتنع من الاتصاف ببعض ما يضادها على وجه من الوجوه، فتأتى المقابلة بالتضاد لتخليصها من كل شائبه ..

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ فعطف ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> لأنه أراد أن يحضهم في الفساد؛ لأنه قد يكون لهم فساد وصلاح في الأرض في آن واحد باختلاف وجوه كل ...

كذلك هنا أراد الشاعر نفى أى وجه من وجوه الكدورة، وتمحيض الصفاء المطلق لهم .. والعطف بالفاء في : " فلم نكدر " يساعد على ذلك لأنه يدل على التعقيب، فلم يحدث كدورة في زمن ما ...

والنفى بـ " لم " للفعل المضارع " نكدر " يصرفه إلى المضى ولكن تبقى معه دلالة الاستقبال مرادة؛ لأن من الممكن أن يقول : صفونا فما كدونا مثلاً .. ولكنه أراد اتصال الماضي بالحاضر والمستقبل، أى أن تلك الصفة قد كانت فيهم سابقاً ثم هم عليها في الحال .. وسيكون عليها أبنائهم مستقبلاً ..

وقد أدمج الشاعر هنا — عن طريق الترقى في الصفاء — الفخر بالأمهات والآباء، زيادة في التبجح بجميل الصفات ...

وعطف بقوله : " وأخلص سرنا " على " صفونا " ترقياً من الأدنى إلى الأعلى وهذا يكون في مقام المدح أو الفخر ؛ لأن هذه الصفة في الآباء والأمهات أكمل وأدل على الغرض المراد .. وآثر " أخلص " لما في معنى الخلو من معنى الاختيار والانتقاء، ومنه سمي الذهب النقى عن الغش خالصاً <sup>(٢)</sup> .. وبهذا يكون قد أشار إلى انتقاء واختيار الأمهات من كرائم النساء وحرائرهن ..

والتعبير بالسر في قوله : " وأخلص سرنا " كناية عن النكاح، وفيها — فوق الدلالة على التأدب والعدول عن اللفظ المستهجن إلى غيره — إشارة إلى كون القصيدة إسلامية فهذه الكناية عن النكاح من دأب القرآن وعادته ..

(١) الشعراء / ١٥٢ .

(٢) الفروق / ٣٣٣ .

وفي الكناية عن النكاح بالسر، وفيه مبالغة في الخفاء ؛ لأن السر إخفاء الشيء في النفس، فلو اختفى بستر أو جدار لم يكن سرًا<sup>(١)</sup> .. = إيماء إلى وجوب ستره وإخفائه ...

وتقديم المفعول : " سرنا " على الفاعل " إناث " على أن الكلام على طهارة الأمهات والآباء، فالكلام عنهن لأحد أمرين :

- إما توصلاً إلى الوصف بقوله : أطابت حملنا .. فتأخيره لذلك حتى يعطف عليه : " وفحول " في القافية ...

- وإما لأن المراد هو صفاء الأنساب وطهارتها .. وهذا يتعلق بالمفعول .

وفي البيت تقديم ذكرى حيث قدم الإناث على الفحول ... وذلك لأن المقدم هو المهم في سياقه ...

إذ إن الكلام على نفى كدورة الأنساب واختلاطها، وهذا يتعلق بالإناث ويرتبط بهن، إذ يأتي الصفاء، والكدورة منهن ...

وتكثير (إناث وفحول) لقصد التفخيم والتكثير ؛ تعظيماً لشأقن وبيان قدرهن ...

علونا إلى خير الظهور وحطنا .: لوقت إلى خير البطون نزول

هذا البيت في وصف " ترددهم في شرف المصعد والمنحدر، وكرم العنصر والمتحول " ويرى المرزوقي أن تأمل هذه الأبيات يؤدي إلى الكشف عن سلامة اللفظ والمعنى من كل معاب، وحصول الفخامة والجلالة لها في كل جانب وباب ...<sup>(٢)</sup>

فهناك عناصر أربعة نبه إليها المرزوقي تتصل ببلاغة الأبيات ...

- سلامة ألفاظها مما يعاب ويذم، فليس ثم غرابة أو التواء في النظم، كما أن الألفاظ دالة على معانيها، وقد وضعت موضعها الأخص الأشكل بها، حيث تراها قارة في مكانها ...

فالتعبير عن علو مراتبهم بانحدارهم من ظهور أكرم الآباء بقوله : علونا إلى خير الظهور فيه — فوق الكناية — مبالغة في الصلاح والحسن ؛ ذلك لأن " خير " يكون على إطلاقه من جميع

(١) السابق / ٧٥ .

(٢) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٩ .

الوجوه، ولا يكون إلا حسناً<sup>(١)</sup> ... ومن ثم فإن المراد التفضيل من جهات متعددة ..  
ولذلك حذف المفضل عليه، فلم يقل : من بنى فلان مثلاً .. لأنه أراد الإطلاق وعلى  
العموم .. أى من الجميع ... وهذا أبلغ من التقييد بشيء معين ..  
- سلامة المعنى مما يعاب ويذم، فليس هناك ما يستهجن أو يستقبح، فكفى عن النساء واللقاء تأدياً  
وتعقفاً ...  
- فيها من الفخامة والجلالة حيث حشد فيها ما يدل على التعظيم والتفخيم، سواء من ضمير  
الجمع "نا" أو فى مقابلة : خير الظهور بـ "خير البطون" ليدل على أن الخيرية قد ضمت جميع  
الأطراف ...  
والشاعر قد عدى الفعل : "علونا" بـ "إلى" ومقتضى الظاهر التعدية بـ "على" لأن  
فى الفعل معنى الاستعلاء، وهذا أشبه بـ "على" ولكنه أراد معنى القصد إلى الشيء من غير تحول  
عنه ولا التفات إلى غيره .. كأن ذلك مقصدهم الأسمى الذى يسعون إليه .. ولهذا خالف فى تعدية :  
"حطنا لوقت" فعدى الفعل باللام ؛ لأنه أراد معنى الانتهاء إلى الغاية، فانتهاه مقصدهم إلى أشرف  
الأمهات ...  
والشاعر قد فصل هذا البيت عن سابقه ؛ لأنه كالتفسير له، والبيان للصفاء فى الأنساب  
... فبينهما كمال اتصال ..  
فنحن كماء المزن ما فى نصابنا .: كهام ولا فىنا يعد بخيل  
العطف بالفاء — هنا — لما فيها من معنى السببية والترتيب، أى أن ذلك سبب عما سبق  
تقريره من حقائق طهارتهم ... وهو مرتب عليه ..  
ولم يقل : "إنا كماء المزن" مع ما فيها من التعظيم والتفخيم شأن ضمير الجمع : "نحن"  
لأنه لم يرد التأكيد، كأن تلك الحقيقة — بعد ما سبق تقريره وتحقيقه — قد صارت مسلمة لا يشك  
فيها ..

(١) الفروق / ٢٣٦ .

وإثارة ماء المزن في المشبه به ؛ لأن ماء المزن عندهم أقصى المياه وأنقاها، فشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر .. (١)

ولم يقل : كماء السحاب أو المطر ... وإنما أثر المزن لما فيه من معنى الإضاءة والبياض والسخاء ... يقول الراغب : " المزن : السحاب المضيء ... ويقال الهلال الذي يظهر من خلال السحاب ابن مزنة، وفلان يتمزن أى : يتسخى ... " (٢)

ولذا فليس المزن المطلق السحاب كما ذهب إليه المرزوقي ؛ لأن من السحاب ما هو كهام ... وهو ما نفاه عنهم في السياق البعدى للتشبيه...

والشاعر هنا قد زاد : " نصابنا " في قوله : " ما في نصابنا كهام " وكان يمكن أن يقول : ما فينا كهام .. ولكنه زاد " نصابنا " والنصاب : الأصل ؛ لأن السياق في طهارة أصولهم، فقبله : علونا إلى خير الظهور وحطنا .:. لوقت إلى خير البطون نزول في وصف تردددهم في شرف المصعد والمنحدر — كما ذهب المرزوقي — (٣) وبهذا يكون هذا التشبيه لتحقيق الغرض المراد من الكلام...

ويجوز أن يكون ذلك للاستدلال على فضلهم هم على سبيل الأولى ؛ لأنه إذا شرف الأصل وصفا من كل كدورة وشائبة صفا الفرع ... ولهذا أتبعه بقوله :

ولا فينا يعد بخيل

وهاهنا أصل مهم في توجيه النفي إلى كلام مقيد ؛ ذلك لأن الكلام إذا كان منفيًا ومقيداً بقيد كان ذلك على وجوه مختلفة (٤) منها :

- أن يتوجه النفي إلى القيد ؛ فإذا قيل : ما جاء زيد مسرعاً، فالنفي توجه إلى الحال .. والفعل ثابت، وكذا في قول الشاعر :

(١) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

(٢) المفردات / ٤٦٧ .

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١١٩ .

(٤) ينظر : استقصاؤها في البرهان للزركشى ٢ / ٣٩٣، ٣٩٤ .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه .: تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن <sup>(١)</sup>  
 فالنفي تسلط على " كل " فأفاد سلب العموم، أى : بعض ما يتمنى المرء يدركه ...  
 - أن يتوجه النفي إلى الفعل والقيد معاً، وهذا من نفي الشيء بإيجابه، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ <sup>(٢)</sup> فالوجه أن يكون نفيًا للسؤال من أصله وليس نفيًا للإلحاف في المسألة وإبقاء السؤال ؛ لأن ذلك معارض لسياق الآية ؛ إذ هي في بيان وصفهم بالتعفف، تدبر قوله - سبحانه - ﴿ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ فهذا كالصریح في أن لا يسألون البتة ... <sup>(٣)</sup>  
 وعلى هذا جاء النظم في البيت ؛ لأن الغرض نفي البخل من أصله ؛ إذ المراد : ولا فينا بخيل فيعد، فهو نفي للبخل رأساً، وليس يريد أن فيهم بخيلاً ومع ذلك لا يعد... <sup>(٤)</sup>  
 وهذا كثير في العريية كما في قول امرئ القيس : <sup>(٥)</sup>  
 على لاحب لا يهتدى بمناره .: إذا ساقه العود الديافي جرجرا  
 أى : لا متار له فيهتدى به ؛ لأنه إذا كان به منار فإنه يهتدى به ولا بد ...  
 وكذا في قول ابن أحرر في وصف الصحراء بأنها لا مخاطر بها : <sup>(٦)</sup>  
 لا تفزع الأرنب أهواها .: ولا ترى الضب بما ينحجر  
 أى : ليس بها أهوال أصلاً ؛ لأنه إذا كان بها أهوال فإنها تفزع الأرنب ولا بد ؛ لأنه يفزع من كل شيء ... وكذا في الشطر الثاني المراد ليس بها ضب أصل ؛ لأن الضب والحجر متلازمان، فحيث أثبت نفي الحجر فقد أثبت نفي الضب ..

(١) الدلائل / ٢٨٠ .

(٢) البقرة / ٢٧٣ .

(٣) ينظر : البرهان ٣٩٣/٢ .

(٤) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

(٥) ديوانه / ٩٥ .

(٦) الخزانة ٢٧٣/٤، وينظر : بذور المباحث البلاغية / ٦٢٠ . ماجستير للمؤلف .

وقد تقول : ولم قال الشاعر : ولا فينا يعد بخيل، ولم يأت على نفى الشيء أصلاً من أول الكلام كأن يقول : ولا فينا بخيل .. ؟

ودع عنك إقامة الوزن والقافية فإن ذلك يستطيع الشاعر إقامته إذا ترتب على ذلك فضل في المعنى وزيادة ..

الوجه عندي أن الشاعر هنا أراد إقامة الدليل على نفيه، إذ المراد أنه ليس فينا بخيل أصلاً والدليل على ذلك أنه لو كان فينا بخيل لعد وعرف ؛ إذ لا يخفى مكاننا ولا شأننا ؛ لتعرف الناس علينا وتتبع أخبارنا ..

وبناء الفعل للمجهول في قوله : " ولا فينا يعد بخيل " لأن الغرض التركيز على الفعل نفسه . فهو المعنى بنفيه هاهنا ..

ثم فيه دلالة العموم والشمول — أيضاً — أى : لا يعده أحد كائناً من كان بخيلاً، ونفى البخل عنهم بعد الاستدلال على صفاء أنسابهم بالتشبيه بماء السحاب = فيه مناسبة بين الطرفين ؛ لأنه إذا نفى البخل فقد أثبت الجود والكرم ... والسحاب في الشطر الأول مثل لذلك .. فهناك تناسب في العطاء ...

وتقديم القيد هنا : " ولا فينا يعد بخيل " لإرادة الحصر والاختصاص، أى إن هذه الصفة خاصة بهم لا تعداهم إلى غيرهم .. لاسيما وأن الكلام دفع لتهمة ..

وقد يكون في التقديم معنى التعريض بغيره ممن جاذبه القول واتهمه، أى : فيكم لا فينا ... وهذا الوجه أقرب ... لاسيما وأن الأبيات في أكثرها قائمة ومبنية على نفى شيء وإثبات آخر ... على وجوه مختلفة ..

وننكر إن شئنا على الناس قولهم .: ولا ينكرون القول حين نقول

إذا سيد منا خلا قام سيد .: قزول لما قال الكرام فعول

هذا البيت وتاليه في وصف رياستهم وعلو كلامهم ونفاذ حكمهم، ورجوع الناس في المهمات إلى رأيهم والاعتماد على تدبيرهم ومشورهم<sup>(١)</sup> وأن ذلك منهم في كل وقت وحين

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .

لاتصال السيادة فيهم وعدم انقطاعها عنهم ..

ولذا أثر الإنكار — هنا — لأنه يدل على الردع والزجر، وهو ما يلائم الاستعلاء في " على " في قوله : " على الناس " .

يقول الراغب : " ونكرت على فلان وأنكرت ، : إذا فعلت به فعلاً يردعه " <sup>(١)</sup> وقوله : " إن شئنا " وقع موقع الاعتراض لبيان طلاقة علوهم، ونفاذ حكمهم موكول إليهم هم، فلا تأثير لأحد عليهم .. ثم فيه بيان سرعة الردع والزجر ...

وهذا ملائم لاختيار المشيئة دون الإدارة ؛ لأن فيها عدم التراخي في الفعل، يقول أبو هلال : " إن الإرادة تكون لما يترأخى وقته ولما لا يترأخى، والمشيئة لما لم يترأخ وقته . والشاهد أنك تقول : فعلت كذا شاء زيد أو أبى، فيقابل بها إياه وذلك إنما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مشيئته إنما تكون بدلاً من ذلك في حاله ... " <sup>(٢)</sup>

ودل بقوله : " على الناس قولهم " على معنى إنكار الفعل — أيضاً — إذ القول يستعمل على أوجه متعددة فضلاً عن المركب من الحروف، من الاعتقاد، والدلالة على الشيء والعناية به... <sup>(٣)</sup>

والبيت فيه — فوق دلالة على انقياد الناس لهواهم، واقتنائهم بحزمهم = معنى القوة المسيطرة والعامّة، والتسلط المطلق ...

ولذا فإن ما ذكره المرزوقي <sup>(٤)</sup> بأن هذا البيت يشبه قول الأعشى :

تلقى له سادة الأقوام تابعة .: كل سريضى بأن يلقى له تبعاً

إنما هو من بعض الوجوه دون بعض، وإلا فالأعشى — عندي — مقدم في هذا المعنى ؛ لأنه جعل ذلك عن رضا وطوعية في قوله : " سريضى " وهذا فيه معنى القناعة بالانقياد له .. وهذا معنى زائد عن بيت الحارثي ...

(١) المفردات / ٥٠٥ .

(٢) الفروق / ١٤٢ .

(٣) المفردات / ٤١٥، وينظر : الفروق / ٤٨ .

(٤) شرح ديوان الحماسة / ١٢٠ .



إذا سيد منا خلا قام سيد .: . قول لما قال الكرام فعول  
التقييد بـ " إذا " لتحقيق الكرام وتوكيده، واستلزام اتصال السيادة فيهم واحداً بعد  
الآخر .. وهذا يدل على شيوع الصفات الحميدة بينهم ...  
و " إذا " قال العلماء <sup>(١)</sup> أنها تدخل على الأفعال، فإذا دخلت على الأسماء كما في قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ <sup>(٢)</sup> لزم تقدير فعل من جنس المذكور ... وهذا بين في البيت ؛ إذ التقدير:  
إذا خلا سيد منا خلا .. وهذا يفيد التقوية والتأكيد، فيتلاقى مع إثار " إذا " ...  
وهذا معنى مسبق بما يقاربه في اللفظ، فيشبهه قول حاتم :  
إذا مات منا سيد قام بعده .: . نظير له يغنى غناه ويخلف  
وقول عروة :

إذا مات منهم سيد قام بعده .: . على مجده غمر المروءة سيد <sup>(٣)</sup>  
غير أن بناء الأبيات الثلاثة يختلف شيئاً ما ؛ إذ بناء الحارثي على الاسم لإرادة التوكيد، ثم  
آثر " خلا " على مات مثلاً كما هو عند حاتم وعروة ؛ لأنه أشمل من " مات " لأنه يستعمل في  
الزمان والمكان <sup>(٤)</sup>، فلا يبقوا من غير سيد يدبر أمورهم ويقوم على مصالحهم في وقت أو مكان...  
وتكرير " سيد " في الموضعين — من غير فاصل بعيد — فلم يقل قام بعده ...، كما قال  
عروة وحاتم لما فيه من معنى التفخيم والتعظيم ؛ إذ هو موضع العناية والفخر ..  
و " السيد " المتولى للسواد أى : الجماعة الكثيرة ... ولما كان من شروط المتولى للجماعة  
أن يكون مهذب النفس قليل لكل من كان فاضلاً في نفسه : " سيد " . <sup>(٥)</sup>

(١) ينظر : المغني لابن هشام ٥٠/٢، تحقيق وشرح الدكتور / عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية ٢١ .

(٢) الانشقاق : ١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

(٤) المفردات / ١٥٨ .

(٥) المفردات / ٢٤٧ .

والمفاضلة في السيادة تكون في العلم أو السن أو الشرف، ثم فيه معنى الطاعة ممن يلي تدبيرهم <sup>(١)</sup>، وهذا يفسر .

والتقييد بـ " من " في قوله : " منا " في الأبيات الثلاثة دون : " فينا " للنص على أن السيد منهم ومن بينهم، بخلاف فينا فهي وإن أفادت الظرفية وأنه فيهم، لكن لا يستلزم أن يكون منهم، بل قد يكون من غيرهم وسادهم ... وهذا يأنفون منه ...

والترقي في المدح أدى إلى الابتداء بالقول : " قزول " ثم ارتقى إلى الفعل : " فعول " ؛ لأن الثاني أدل على معنى السيادة وتحقيقها .. فلا فائدة لقول من غير فعل .. بل يعد هذا عيباً عندهم ..

وما أخذت نار لنا دون طارق .: ولا ذمنا في النازلين نزيل  
وهذا كناية عن دوام كرمهم واتصاله في كل وقت، بل الإعانة عليه والاستعداد له ... ثم الترقى في المبالغة فيه بنفى ذم الضيف لهم بعد مفارقتهم ..

والنار في قوله : " وما أخذت نار لنا " هي نار الضيافة عند المرزوقي <sup>(٢)</sup>، وهي عندى أشمل من ذلك ؛ فهي — فوق ذلك — لاهتداء الغريب وابن السبيل إليهم، بدلالة قوله " طارق " وهو لا يكون إلا ليلاً وكانوا يوقدون النيران ليهتدى بها الضلال ... ثم هي معدة لإكرامه بعد نزوله عليهم ...

ولم يقل : " نارنا " بل : " نار لنا " لما تدل عليه اللام من معنى الملك وزيادة الاختصاص ...

والبيت قد بنى نظمه على النفي في الموضعين، وكان يمكن أن يجيء على الإثبات، كأن يقول: ونوقد النار ... وبمحمدنا النازل ... ولكن النفي هنا فيه معنى التأديب وعدم الانقطاع، بخلاف الإثبات فلا يستلزم ذلك ولا ينص عليه، ألا ترى أنه لو قال ونوقد النار للضيف — مثلاً — لما دل على اتصال ذلك في جميع الأوقات وكذا لو قال وبمحمدنا من يزل عندنا — مثلاً — لدل

(١) ينظر : الفروق / ٢٠٦، ٢١٠ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

على وقوع الصفة ولا يستلزم عدم انقطاعها في جميع الأزمان .. ولا ريب أن المعنى يستلزم ما عليه البيت ..

والترتيب بين الشطرين على حسب الواقع فالضيف يزل فيهم فيكرم ... ثم يفارقهم فيمدحهم ...

وبناء الفعل للمجهول في : " أخذت " لإرادة عموم نفى الحدث على أى وجه كان تركيزاً عليه .. فلم يحمدها هم ولم يحمدها غيرهم ...

وتنكير " نار " و " طارق " و " نزيل " لإرادة العموم، أى أن كرمهم في جميع الناس سواء بسواء، فلا يخص أحداً دون أحد .. وهكذا..

وزيادة : " في النازلين " — عندى — قليلة الفائدة، فهو حشو ؛ لأن حذفها أحسن .  
لدلالته على العموم في النفي سواء نزل فيهم أم لا ؛ لاشتهار خبر كرمهم حتى عرفه الناس جميعاً...  
وهذا البيت يبدو غريباً وسط الأبيات عند النظرة الأولى ولكن التحقيق أنه امتداد لعناصر السيادة والرياسة وعلو الكلمة، فليس ذلك في المعركة فقط، ولكنها شئنا متعددة، فأخذ في تعدادها ..

وأيامنا مشهورة في عدونا .: لها غرر معلومة وحجول

وأسيافنا في كل غرب ومشرق .: بها من قراع الدارعين فلول

معودة ألا تسل نصاها .: فتغمد حتى يستباح قبيل

هذا معنى آخر انتقل إليه الشاعر بعد وصفهم بالكرم ؛ ولذا عطف بالواو : " وأيامنا " لأنه أراد المغايرة والتكثير من صفات السيادة فيهم والتعبير بالأيام عند الوقائع والحروب مجاز مرسل لعلاقة محلية ؛ حيث عبر بالخل وأراد الحال فيه ... مبالغة في الوصف (الحروب والانتصارات ) فهي قد استغرقت اليوم كله ...

ثم فيه معنى آخر وهو الدلالة على اشتها وقائعهم، وعلم الناس بها، حيث صارت موضع تأريخ لهم ..

ولهذا وصفها بقوله :

لها غرر معلومة وحجول

على سبيل التشبيه بالأفراس الغر المحجلة بين الخيل، يعرف بلاؤنا فيها، وحسن آثارنا عند النهوض لها .. (١)

وهذا المعنى تلحظه في التعبير بالأيام في قوله تعالى : ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (٢) فهي معروفة عندهم ؛ لعظم الإنعام فيها، ولذا أضافها إلى الله : ﴿بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وجمع الأيام في قوله : " وأيامنا " لتعددتها وكثرتها ... وإن كان (أفعال) من جموع القلة إلا أن سياق الفخر والاعتزاز يدل على معنى التكثير ... وهذا أيضاً يدل على المعنى الذي أشرت إليه من اشتهاؤها ...

كذلك في إثارة مشهورة على معروفة — مثلاً — ملاءمة لما قلت، ذلك لدلالة مشهورة على معرفة الجماعة الكثيرة لها على سبيل الاستلزام، بخلاف معروفة، يقول أبو هلال في الفرق بين المشهور والمعروف : " إن المشهور هو المعروف عند الجماعة الكثيرة، والمعروف معروف وإن عرفه واحد، يقال : هذا معروف عند زيد، ولا يقال : مشهور عند زيد، ولكن مشهور عند القوم... " (٣) وهناك حذف للمضاف في قوله : " في عدونا " ؛ إذ التقدير في : " هزيمة عدونا " أو ما أشبهه، ولكنه حذف ليدل على معنى العموم والشمول لكل ما فعلوه في أعدائهم من جرح وأسر ... وقتل ...

وتوحيد المصدر : " عدو " جاء على أصله ؛ لأن المصادر يستوى فيها الواحد والجمع، ولكن تبقى للإفراد لطيفة مرادة — هنا — وهي الدلالة على أن عداوة الناس لهم واحدة في صفتها ...

ولذلك ترى القرآن الكريم يفرد عند إرادة الوحدة في العداوة، كما في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (٤) لأن عداوته في أمر الدين .. ويجمع عند إرادة تنوع العداوة، كما قال : ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ﴾ (٥) لأن عداوتهم متنوعة، فهذا يعادى في الدين، وذلك للسيطرة والتملك .. وذاك للمال ... الخ

(١) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢١ .

(٢) إبراهيم / ٥ .

(٣) الفروق / ١١٠ .

(٤) الكهف / ٥١ .

(٥) المتحنة / ٢ .

وتقديم المسند في قوله : " لها غرر " لإرادة التقوية والتوكيد ؛ لأنه في معرض الرد على من جاذبه القول ...

وجمع : " غرر " و " حجول " لمقابلة الجمع في : " أيامنا " ويمكن أن يكون الجمع لإرادة المبالغة في شهرتها ومعرفة الناس بها ...

وأسيافنا في كل غرب ومشرق .: . بها من قراع الدارين فلول  
هذا المعنى — في ظاهره — كسابقه، إلا أن العطف بالواو : " وأسيافنا " يبعد من ذلك ويجعله كأنه غرض مستقل عن سابقه، وإن كان ترقياً في الدلالة على مقارعة الأعداء ...

وجمع " أسيافنا " وإن كان جمع قلة، وهو لا يليق بمقام الافتخار، لأن اللائق سيوف دون أسياف للدلالة على كثرتها ... إلا أن له تحريجاً وإن كان بعيداً ولهذا نقد النابغة حسان في قوله :  
لنا الجففات الغريرقن بالدجى .: . وأسيافنا يقطرون من نجدة دما

لأن اللائق بمقام الفخر الجفان والسيوف، لدلائتها على الكثرة ... ولذا قال له : قللت جفانك ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت وأسيافنا ولو قلت : سيوفنا لكان أحسن ..<sup>(١)</sup>  
ولكن يمكن أن يكون : " أسيافنا " جمع قلة — هنا — في مقابلة " أيامنا " في البيت السابق فيكون قد نظر إلى المقابلة اللفظية بين أجزاء القصيدة في نوع الجمع .

ولكن يبعد ذلك أن " أسياف " جمع " سيف " لها جمع كثرة من لفظها وهو " سيوف " بخلاف " أيام " جمع " يوم " فلا جمع كثرة لها فدل جمع القلة " أيام " على التكثير بمراعاة قرائن الأحوال، حيث إن القصيدة في الفخر ...

ويمكن أن يكون جمع القلة : " أسياف " تمثيلاً مع الاعتراف في أول القصيدة بقلة العدد في قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا .: . فقلت لها إن الكرام قليل  
ولكن هذا بعيد — أيضاً — لعدم استلزام ذلك لهذا ؛ فالجهة منفكة ... ثم إنه لم يرض بقلة القدر والغناء، بل دل على علو أمرهم .. وكثرة السيوف لازمة لذلك ...

(١) ينظر : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ١٩ — ط بيروت .

والتعبير بقوله : " في كل غرب ومشرق " للدلالة على العموم في كل الجهات، وليس الشرق والغرب فقط، فإذا ذكرنا فالمراد الشمول كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾<sup>(١)</sup> فالمراد استغراق جميع الجهات وهذا أدل على طلاقة القدرة، كذلك الأمر هنا المراد استغراق جميع الأماكن وهذا أدل على الفخر والقوة ..

وتقديم القيد في قوله : " في كل غرب ومشرق " لأن ذلك المعنى هو موضع العناية والاهتمام ؛ إذ به يكون الفخر والعزة ..

والوصف بقوله : " بما من قراع الدارعين، أى الذين يلبسون الدروع في الحروب ويتهاون لها بالعدة والسلاح وتنام الآلة، دون أن يقول الناس مثلاً، أو الأعداء .. فيه دلالة على وصف عدوهم بأنه " على غاية الاحتراز منهم، وفي أكمل الاستعداد لهم " ...<sup>(٢)</sup>

وفي هذا مدح لقومه بالقوة والغلبة ؛ لأن عادة الشعراء إذا وصفوا قوة عدوهم ومنعتهم وتنام آلتهم، والاحتراز في الحروب أن يدلوا بذلك على المبالغة في الافتخار ؛ لأنه لا يكون ذلك إلا إذا دعاه إلى البراز فأبى، أو بارزه فلم يقم له، أو فر منه، فهو يقول له : قد فعلت ذلك وأنت تام الآلة حديد العدة ... فهذا ثلم لعرضك، وأدل على قوتي وعزى ..

وهذا ما تجده في هذا البيت لأنه وصف عدوه بأنه يتحصن بالدرع، ومع ذلك فأسيافهم تنال منهم وتسلبهم القوة .. فهذا أدل على الافتخار...

ووصف السيوف بأن بها فلولاً من قراع الدارعين تأكيد للمدح بما يشبه ضده فهو يشبه قول النابغة الذبياني :<sup>(٣)</sup>

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم .: . . . . . بمن فلول من قراع الكتائب

فهذا يدل على كثرة ضرب الأعداء وقوته، بحيث تفللت سيوفهم من ذلك، وهذا سيل المدح ... والفخر ... ولهذا أثر " قراع " دون ضرب ؛ لأن القرع فيه معنى القوة والشدة،

(١) البقرة / ١١٥ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢٢ .

(٣) ينظر : شرح ديوان الحماسة / ١٢٢ .

ولذلك سميت الساعة بالقارعة في قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ \* مَا الْقَارِعَةُ ﴾ <sup>(١)</sup> لشدة الصوت وقوته. ومن ثم نص العلماء على أن السموأل قد أخذ اللفظ والمعنى من النابعة في البيت المتقدم <sup>(٢)</sup>. ويلاحظ أن هذا البيت وسابقه قد بناه الشاعر على الجملة الاسمية "وأيامنا مشهورة"، "وأسيافنا..." وذلك للدلالة على الثبات والدوام، أى ان هذه الصفة لازمة فيهم لا تنقطع ولا تزول ...

معمودة ألا تسئل نصاها .: فتغمد حتى يستباح قبيل  
قوله : " معمودة " لها وجهان :

- أن تكون حالاً مما يدل عليه قوله في البيت السابق : " بها من قراع الدارعين فلول " وهذا الوجه فيه ضعف ما ..
  - أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره : هي معمودة ... <sup>(٣)</sup>
- والوجه الثاني أقوى ؛ لأنها إذا كانت حالاً، فإنها تكون في بعض الأوقات دون بعض وليس في جميع الأوقات .. وهذا غير وجيه ...
- ولكن يمكن أن تكون الحال لازمة، وهذا بعيد ..
- أما الوجه الثاني فهو أدل على المدح وأقوى في الفخر، أما كونه أدل على المدح فللدلالته على أن ذلك دائماً وفي كل وقت ...
- ثم في الوجه الثاني دلالة على اشتهاؤهم، فهي معروفة عند المخاطب ولا تنكر، وهذا يقوى من الفخر ...
- وفي التعبير استعارة مكنية ؛ لأن أصل العادة هي المواظبة على الشيء، وذلك من خصائص أصحابها وليس للسيف من ذلك شيء ..

واسم المفعول هنا : " معمودة " فيه دلالة على التركيز على الحدث نفسه ؛ لأنه موضع

(١) القارعة / ١ ، ٢ .

(٢) ينظر: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين — الخالديان ١/١٤٥ .

(٣) شرح ديوان الحماسة / ١٢٣ .

الفخر، وقد علم الفاعل لا محالة، فهو متعين من السياق ادعاء ..

والغاية في قوله : " حتى يستباح قبيل " تعيين لوقت غمد السيوف، وهذا الوقت هو نهاية الأمر للأعداء ... وأدل على الفخر لهم ...

ذلك لأن الاستباحة قد وقعت على : " قبيل " لدلالته على العموم والشمول، فهو جمع قبيلة وفيه معنى الكفالة <sup>(١)</sup> ... وفي هذا نهاية الفخر ؛ فإذا استباح الجمع دل على القوة ...

ثم ما في دلالة الاستباحة في قوله : " حتى يستباح قبيل " على معنى الاستئصال، واتخاذ ذلك مباحاً للنفس .. كل ذلك يدل على المعنى المراد من الفخر والقوة ...

والعطف بالفاء في قوله : " فتغمدنا " للدلالة على التعقيب والمصارعة في استباحة هذه الجماعة المختلفة ...

#### خاتمة القصيدة

سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم .: فليس سواء عالم وجهول

فإن بنى الديان قطب لقومهم .: تدور رحاهم حولهم وتجول

هذان البيتان يمثلان حسن ختام لهذه الصفات التي ادعاها لقومه، لأنها استدلال على تصحيح ما ادعاه من الخصال التي عددها بشهادة الناس له وتصديقهم مقالة . <sup>(٢)</sup>

وفي هذا دلالة على ثقة المتكلم بصدق كلامه، وأن تلك الصفات مشورة للناس ومعروفة عندهم، لا يمكن أن تنكر فهي كالشمس في رابعة النهار ...

وهناك تلازم بين البدء والختام، فهو في استهلال قصيدته قد أتى بحكمة عامة لا تنكر فهي مركوزة في الطباع .. وفي الختام أتى بأمر مسلم عند الناس جميعاً ... <sup>(٣)</sup>

وهذه عادة الشعراء في الاستدلال على صدق كلامهم ... ألا ترى إلى قول ابن الدميني :

سلى البانة الغناء بالأجرع الذي .: به البان هل حيت أطلال دارك

(١) ينظر : الفروق اللغوية / ١٨٥ ، والمفردات / ٣٩٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة / ١٢٣ .

(٣) ديوان ابن الدميني / ١٥ .



وهل قمت في أظلالهن عشية .: مقام أخى البأساء واخترت ذلك  
وكذا قول عنترة : (١)

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك .: إن كنت جاهلة بما لم تعلم  
يخبرك من شهد الواقعة أننى .: أغشى الوغى وأعف عند المغنم  
فهذا يدل على ثقته بالأمر، لشهرته في ذلك ..

وتعدية السؤال بـ " عن " في قوله " سلى إن جهلت الناس عنا وعنكم " فيه دلالة على  
إرادة المعرفة من السؤال، فهو إذا تعدى بـ "عن" يكون في الأكثر لاستدعاء المعرفة، وإذا تعدى  
بـ " من " فهو لاستدعاء المال .. (٢)

والتقيد بـ " إن " في قوله : " إن جهلت " لإرادة النكرة والشك والقلّة، لأن اشتهار  
صفاقم، ووضوح شأنهم = يمنع أن تكون جاهلة بهم..

و " ال " في " الناس " لمعنى الاستغراق، أى استغراق الجنس كله، وفي هذا مبالغة في  
اشتهار أمرهم بين الناس جميعاً ...

وهناك روايتان للبيت فضلاً عن رواية المرزوقي : وهما " سلى إن جهلت الناس عنا  
فتخبرى "، و " سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم " والفرق بينها ظاهر ؛ لأنه الرواية الأولى فيها  
معنى المقارنة بينهم وبين قومها ؛ فتكون هى من جاذبته الكلام في أول القصيدة في قوله :  
تعرنا أنا قليل عديدنا .: فقلت لها إن الكرام قليل

وفي هذه المقارنة دلالة على أن البون بينهما شاسع لا يلتبس على الناس ...  
أما الرواية الثانية : " فتخبرى " فيها معنى المسارعة إلى الإخبار بحقيقتهم ؛ لثناء الناس على  
صفاقم ..

أما الرواية الثالثة فهي " عنا وعنهم " بضمير الغيبة، فامجاذبة والتعريض مع غيرها ..

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني/ ١٤٧ .

(٢) ينظر : المفردات / ٢٥٠ .

والشطر الثاني : " وليس سواء عالم وجهول " الأولى العطف بالفاء أو الفصل ولا أرى للواو — هنا — وجهاً ...

ذلك لأنه في معنى بيان السبب من السؤال وهذا ظاهر على رواية المرزوقى : " عنا وعنكم " ثم هو في جواب سؤال عن العلة والسبب في السؤال ...

وقد يكون العطف بالواو — هنا — معنى الزيادة في الحث على السؤال، كأنه ذكر سببين يدعوان إلى السؤال عنهم، فالأول هو جهلها بهم، والثاني هو تفضيل العلم بالأمور ... وعلى هذا يكون قوله : " فإن بنى الديان ... " في البيت التالى هو لبيان العلة والسبب الداعى إلى السؤال ..

والاختلاف بين " عالم " و " جهول " في بنية الكلمة، إما لمراعاة القافية، مشاكلة لبناء القوافى في الأبيات السابقة .. وإما للدلالة على المبالغة في الجهل، وهذا تظهر معه المفارقة أكثر والمبينة أوضح ...

وكذا الأمر في تقديم خبر " ليس " : " سواء " ؛ إذ الأصل : فليس عالم وجهول سواء .. وذلك لمراعاة القافية .. أو للعناية بنفى التسوية ؛ لأنها الغرض المهم من الكلام ...

فإن بنى الديان قطب لقومهم .: تدور رحاهم حولهم وتجول هذا البيت مبنى على التشبيه لتحقيق كل الصفات المتقدمة ؛ فالقطب — في أصل وضعه — : الحديدية في الطبقة الأسفل من الرحى يدور عليها الطبقة الأعلى، ولذا قالوا — على التشبيه — : فلان قطب بنى فلان، أى سيدهم الذى يلوذون به ...<sup>(١)</sup>

وهذا بين في البيت، حيث أراد تشبيه حالهم بين الناس في اعتماد الناس عليهم واحتمائهم بهم ... بالقطب .. حيث هو أصل الرحى التى عليها تدور ...

والتأكيد بـ " إن " — هنا — لمراعاة المخاطب أو المتكلم .. أما مراعاة المخاطب فهناك من ينكر عليه ذلك ويعيره بقله العدد، حيث أراد قلة القدر والغناء .. فأراد الشاعر رد دعواه ...

(١) شرح ديوان الحماسة / ١٢٤ .

أما مراعاة حال المتكلم ... فهو بين ؛ إذ يدل على اتصال الشاعر بتلك الصفات وتأثره بها ... فهي صفات جليلة ..

وكان الأولى أن يكون التقييد هنا عاماً شاملاً ؛ لأنه ادل على الفخر، أما قوله " لقومهم " ففيه تقليل لقدرهم هوذا ما — إلا إذا أراد أنهم يعودون بالحماية على قومهم أولاً ... ثم باقى الناس بعد ذلك تبع لهم ..

وقوله : " تدور رحالهم حولهم وتجول " لتحقيق التشبيه وبيان وجه الشبه المقصود، وهو أن الناس يلوذون بهم، ويدورون حولهم، يأتمرون بأمرهم ... ويقفون عند رأيهم ... ولذلك أعاد الضمير على قوله : " قومهم " في قوله " رحالهم " ولم يقل " رحاها " ليعود الضمير على القطب أى الحديدية ؛ ذلك أن الغرض المراد هو وصفهم هم وبيان وجه الشبه بالنسبة إليهم ...

والتشبيه — هنا — لبيان الحال ؛ لأن أمر الحديدية في الطبق الأسفل من الرحى وكونها قوامها ومعتمدا = أمر معروف عندهم، ومقرر لديهم ... ومن ثم جاء التشبيه لبيان الحال ...

## خاتمة البحث

الحمد لله بدءاً وخاتمة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد :

فقد أثبت البحث بعض النتائج التي يراها جديرة بالتسجيل في نهايته:

- رجح البحث نسبة القصيدة للسموأل عن طريق دلالات التراكيب واختيار الألفاظ القرية إما من حاله أو بنائه، ونفى أن تكون مصنوعة كلها أو بعضها عن طريق تتبع بنائها واستوائه على فحج واحد ثم اتفاق معانيها وتسلسلها من المعنى الأول الذي انبثقت منه القصيدة .
  - ومن ثم فيوصي البحث بتتبع ما قيل بنحله ووضعه والنظر في طرائق وأساليب الشعراء ثم الحكم عليه من خلال سميت بيان كل شاعر وطرق تعبيره عن معانيه .
  - وهذا أولى من الحكم بالوضع والنحل أو الصحة عن طريق الروايات التاريخية أو الأدبية لدخول كثير مما لا يمكن تمييزه من سقيم.
  - بين البحث كيفية تلائم مطلع القصيدة مع تراكيبها وكيف تسلسلت أفكارها ومعانيها وأبياتها من الجزء الأول فيها ؛ إذ كلها فيما يصون العرض ويحفظ الأصل ويدفع العيب .
  - نبه البحث إلى الفروق الموجودة بين الروايات المتعددة في القصيدة ومدى تناسبها مع بنائها كله، وكيف تستجد إحدى الروايات وتختار.
  - لم يكن التحليل الجزئي من وكد البحث وهمه إلا بمقدار ما يعينه على إبراز الخصائص الكلية للنظم من خلال أجزائه .
- وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

## المصادر والمراجع

- ◀ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين — الخالديان. ط دار الجيل بيروت.
- ◀ الأغاني لأبي الفرج — تح سمر جابر — دار الفكر العربي — بيروت — ط ثانية .
- ◀ الإيضاح للخطيب القزويني ط دار الجيل بيروت . .
- ◀ اختيارات المرزوقي في البلاغة للمؤلف — ط أولى ٢٠٠٣ مطبعة السلاموني.
- ◀ اعتراضات الشيخ الطاهر البلاغية في التحرير والتنوير عرض وتأصيل ودراسة — دكتوراه للمؤلف .
- ◀ بذور المباحث البلاغية في معاني القرآن وإعراجه للزجاج . ماجستير للمؤلف .
- ◀ البرهان في علوم القرآن للزركشي — ط دار التراث .
- ◀ البرهان للكرمانى (أسرار التكرار) — ط دار الكتب العلمية .
- ◀ تاج العروس للزبيدي — ط الكويت .
- ◀ تجريد البناني على مختصر السعد .
- ◀ التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين علي السيد — دار الطباعة الحمديّة .
- ◀ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني — تحقيق الشيخ/ محمود شاکر ، مطبعة الخانجي .
- ◀ ديوان ابن الدمينه — دار صادر بيروت
- ◀ السموأل الحقيقة والتاريخ — د/ فضل بن عمار العماري — مجلة جامعة الملك سعود، العدد ١٤٢٢هـ — ٢٠٠٢ .
- ◀ شرح المعلقات السبع للزوزني — دار صادر بيروت .
- ◀ شرح ديوان الحماسة للتبريزي — دار صادر بيروت .
- ◀ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي — تحقيق عبد السلام هارون — دار الجيل — بيروت .
- ◀ طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي — قراءة الشيخ / محمود شاکر .
- ◀ عيار الشعر لابن طباطبا العلوي — تح / عباس عبد الساتر — دار الكتب العلمية — بيروت — ط أولى ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م .

- ◀ الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري — دار الكتب العلمية بيروت .
- ◀ قراءة في لاميات الأمم د/ محمود الريدائي مجلة التراث العربي دمشق العدد ٨٣، ٨٤ موقع اتحاد الكتاب العرب الإلكتروني .
- ◀ الكتاب — سيبويه — تحقيق عبد السلام هارون — الطبعة الثالثة .
- ◀ المعجم المفهرس — محمد فؤاد عبد الباقي .
- ◀ معلقة زهير في ضوء نظرية النظم د/ عبده زايد .
- ◀ المغني لابن هشام ٥٠/٢، تحقيق وشرح الدكتور / عبد اللطيف محمد الخطيب، السلسلة التراثية ٢١ .
- ◀ مفتاح العلوم للسكاكي — دار صادر بيروت .
- ◀ المفردات للراغب الأصفهاني — ط إيران .
- ◀ مواهب الفتاح (شروح) .
- ◀ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ط بيروت .